هربرت جورج ويلز

جزيرة الدكتور مورو



جزيرة الدكتور مورو

جزيرة الدكتور مورو

تأليف
هربرت جورج ويلز

ترجمة
أميرة علي عبد الصادق

هنـــداوي

جزيرة الدكتور مورو

هربرت جورج ويلز

The Island of Doctor Moreau

Herbert George Wells

الطبعة الأولى ٢٠١٣م
رقم إيداع ٢٠١٢/١١٢٧٣

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ويلز، هربرت جورج، ١٨٦٦–١٩٤٦.
جزيرة الدكتور مورو/تأليف هربرت جورج ويلز.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ٢٥ ٢

١–القصص الإنجليزية
٢–القصص العلمية

أ–العنوان

٨٢٣

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

من أفضل ما قيل عن الكتاب

«رواية قصيرة، قاسية، مقتضبة، مثيرةٌ بلا هوادة. كتاب مرعب بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، وإنجاز ويلز الأكثر تميزًا.»

تشاينا ميايفل

«من نوعية الكتب التي ما إن تقرأها مرة، نادرًا ما تنساها.»

مارجريت آتوود

«يحتل ويلز مكانة رفيعة في عالم الخيال العلمي. ومن دونه يتعذر بلا شك تصور ظهور هذا النوع الأدبي.»

كينجسلي أميس

«أعجوبة مروِّعة.»

خورخي لويس بورخيس

«قصة بديعة ومرعبة ... بل أكثر من ذلك ... فهي تتجاوز كونها مغامرة مشوقة فحسب.»

برايان ألديس

«تصحبنا رواية «جزيرة الدكتور مورو» إلى هاوية الطبيعة البشرية. يُعد هذا الكتاب عملًا فنيًّا روائيًّا من الدرجة الأولى.»

فيكتور سودون بريتشيت

تقديم

بقلم الكاتب البريطاني آدم روبرتس

الأسماء سمة بشرية تستغني عنها الحيوانات، لكننا نحن البشر نحب إطلاق الأسماء على أنفسنا والعالم من حولنا، هذا فضلًا عن نَظْم شبكات ومجموعات متداخلة متقنة من الأسماء في الروايات على سبيل المثال. ظهرت رواية ويلز «جزيرة الدكتور مورو» التي تتناول فكرة الإنسان الحيوان وسط زخم إبداعي استثنائي أدى أيضًا إلى تقديم رواية «آلة الزمن» عام ١٨٩٥ (التي ينحط فيها البشر إلى صور حيوانية)، و«حرب العوالم» عام ١٨٩٨ (التي تشهد فيها الحضارة تدميرًا على يد كائنات فضائية وحشية). كان هناك شيء ما في ذهن ويلز؛ شيء دارويني؛ فقد تتلمذ على يد مُريد داروين، توماس هنري هاكسلي. كان ذلك الشيء يتعلق بالتقارب بين الطبيعة البشرية والحيوانية. قبل داروين، آمن البشر بأنهم كائنات متفردة خلقها الإله، وأنهم يختلفون اختلافًا جوهريًّا عن الحيوانات. وقال داروين إن البشر ليسوا سوى حيوانات تحولت بفعل التطور.

«جزيرة الدكتور مورو» أول رواية بارزة تعبر عن تلك الثورة الفكرية الشاملة، وهي قصة مُقتضبة، ممتعة في قراءتها، وتعلق في الذاكرة إلى الأبد. تدور أحداثها حول رجل إنجليزي ينحدر من أصول نبيلة يُدعى إدوارد برينديك، تسوقه الأقدار إلى جزيرة بالمحيط الهادئ لا يسكنها سوى عالم تشريح الحيوانات الحيَّة دكتور مورو (ومساعده مونتجومري)، بالإضافة إلى عدد من أنصاف البشر الذين استحدثهم مورو بالوسائل الجراحية وغيرها من التدخلات في الحياة الحيوانية. وبعد تجسيد الرواية في العديد من

الأفلام، واقتباس كتاب آخرين لها، صار اسم الدكتور الآثم رمزًا لسادية مشرِّح الحيوانات الحية وللحيوانيَّة المبتكَرة.

قبل انتصاف الرواية، يعي الراوي الأمر فجأة. «قلتُ: «مورو! أعرف هذا الاسم.»» أولى النقاد اهتمامًا كبيرًا للأسماء الواردة في هذه الرواية؛ فكلمة "Moreau" بالفرنسية تعني «ذا البشرة الداكنة، مثل المغاربة»، ومع أن مورو في رواية ويلز ناصع بياض البشرة ذو لحية طويلة بيضاء (في محاكاة للإله الأب)، فهو أيضًا محور المشكلات التي تثيرها الرواية حول العِرق، وتمازج الأجناس، والتلوث، وهي الأمور التي مثلت جانبًا مهمًّا من الإطار العام للحياة في بريطانيا الإمبريالية في التسعينيات من القرن التاسع عشر. وقد اقترح نقاد آخرون أن المقطع الأول من اسم مورو يشير إلى كلمة "mors" أو "morte" بالفرنسية التي تعني الموت، أما المقطع الثاني، وهو "eau" ويعني الماء، فيشير إلى انعزال ساكن الجزيرة في الرواية، أو ربما إلى الانسيابية التي يتعامل بها مورو مع الجسد.

لكن يمكننا الإسهاب في القول أكثر؛ فلطالما بدا لي اسم مورو نسخة محرَّفة من اسم «مور»، وهو مَن كتب عن المدينة الفاضلة (يوتوبيا) لأول مرة في العالم، وهي قصة أخرى تدور أحداثها على جزيرة نائية حيث صُقلت الطبيعة البشرية وأُدخلت تعديلات عليها. اسم جزيرة مورو هو «جزيرة نوبل»؛ وهو اسم يشير، على نحو تهكمي، إلى النُّبل، ويحاكي في الوقت نفسه رواية مور الأصلية في مقطعه الأول (فاسم «يوتوبيا» تورية معروفة تعني المكان المثالي واللامكان). وجزيرة "No-bles"، التي يصورها ويلز، هي مكان غير موجود "-No"، وملعون "un-blessed" على نحو واضح. أما جزيرة مور، التي تقع في المحيط الهادئ، فهي مكان مثالي تملؤه السعادة. شوَّه ويلز في قسوة ذلك النموذج الجليل إلى صور بشعة منفرة.

ماذا عن إدوارد برينديك؟ شخصيًّا اعتقدت أن لقبه يحمل بين طياته معنى المُدَّعِي، "pretender". ومع أن الراوي — إدوارد — مُسمًّى تيمنًا باسم أمير ويلز وقتها، فالحقيقة أن العمل يقدمه لنا ابن أخيه المسمى تيمنًا باسم «المُدَّعي الصغير» تشارلز إدوارد. لكن ما الذي يدَّعيه برينديك؟ إنه على ما يبدو يدَّعي طبيعته البشرية؛ فما كان يُعد حجر أساس علم الوجود تبين، بعد داروين، كونه قشرة خارجية لأساس حيواني في الأصل.

تحمل هذه الرواية معاني رمزية غاية في الثراء حتى إنه يمكن المبالغة في تفسيرها، كما هو الحال هنا في موضوع الأسماء. تقدِّم مارجريت آتوود — في مقال استهلالي شهير عن الرواية — عشر قراءات مختلفة في تتابع سريع، وهي: «مورو» كتجربة فكرية تطورية،

كقصة مغامرات من العصر الإمبريالي تعود للتسعينيات من القرن التاسع عشر، كرواية علمية، كإصدار معدل لمسرحية «العاصفة» لشكسبير، أو الكتاب المقدس، أو قصيدة «البحار العجوز» لكولريدج. لكن، على الرغم من ألمعية كل هذه الأفكار، فلا يمكنني منع نفسي من التفكير في أن هذا الإفراط في التأويل قد يُبعدنا عن هدف ويلز من الرواية؛ فالحقيقة أن رواية «جزيرة الدكتور مورو» بسيطة، ووضوحها الشديد هو جوهر سحرها الدائم. تتسم الرواية بالبساطة لأن الحيوانات بسيطة نسبيًّا؛ فنحن نحتفظ بالحيوانات الأليفة، ويفضلها بعضنا على البشر، لأن هذه الحيوانات تمنحنا أمورًا هامة — مثل الرفقة، والولاء، والحب، والتسلية — دون كل التعقيدات التي تنطوي عليها العلاقات بين البشر البالغين. وبساطة الحيوانات لا تعني البراءة بالطبع؛ بل من السذاجة اعتقاد ذلك، لكن البراءة جزء محوري مما تمثله الحيوانات لدى البشر (يتسم هذا التحفظ الأخير بالأهمية؛ فالبساطة أو التعقيد مفاهيم بشرية في نهاية الأمر، ولا تعني أي شيء للحيوانات إلا في إطار علاقتها مع البشر).

برع ويلز كثيرًا في التعبير عن عواقب هذه البساطة: ليس فقط من ناحية إمكانية تضمنها للعنف — أو «البربرية» إذا استخدمنا تعبيرًا أكثر ثراءً — بل أيضًا من ناحية بريقها الغريب الذي يجمع بين السحر والغرابة. وأعتقد أن هذا البريق سمة تشترك فيها جميع الأشياء البسيطة بحق، لأن التعقيد والثراء الجوهريين في الوجود الإنساني يجعلان ما هو بسيط حقًّا أمرًا مغايرًا تمامًا ومحببًا إلى النفس، لكنه غير إنساني. ومن ثم، فمن الأمثلة على ذلك «الوجوه الشبيهة بوجوه الجن الصغار» التي اتسم بها البشر الحيوانات الذين التقى بهم بريندك أول مرة: «كانوا يرتدون عِمامات أيضًا، وأنعموا النظر فيَّ من تحتها بوجوههم التي تشبه وجوه الجن الصغار، وجوه يبرز منها فك سفلي وعيون لامعة»، وأيضًا «أذنا مساعد مونتجومري مدببتا الطرف، وعيناه البراقتان.»

تناول فرويد هذه القضية بحِنكة في كتابه «الحضارة وسخطها»، لكن ويلز سبقه في ذلك. تعرض «جزيرة الدكتور مورو» باستيعاب كامل فكرة أن العنف يصبح أمرًا عاديًّا عندما تكون الحضارة (التفاوض، التسوية، الإخضاع) أمرًا معقدًا. ويحكم مورو سيطرته على حيواناته البشرية باستخدام «القانون»، وهو مرادف لفظي للألم الذي يمثل وسيلته في ابتداعهم. يُعد ذلك استراتيجية بسيطة، لكنها محفوفة بالمخاطر. وتقوم أحداث الرواية على انحلال، أو انحطاط، هذه البنية المفروضة على تلك الكائنات.

عندما قرأت هذه الرواية للمرة الأولى أزعجني كثيرًا الألم الذي ألحقه مورو بكائناته، ولا أعني هنا من الناحية الأخلاقية (وإن كان ذلك أمرًا مؤكدًا بالطبع)، بل من الناحية

العملية. فلماذا لم يستخدم مخدرًا؟ تدور أحداث الرواية في عام ١٨٨٧، وكان الإيثير والكلوروفورم يُستخدمان على نطاق واسع في الجراحة منذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر. لكن كلا؛ فمورو يرفض تخدير ضحاياه؛ لماذا؟ لأن الألم جزء من أدواته الجراحية، شأنه في ذلك شأن أي أداة أخرى. ويتضح ذلك في كلماته المرعبة: «في كل مرة أُغمِر فيها كائنًا حيًّا في بحر من الألم الرهيب أقول: هذه المرة سأقضي على الحيوان بالكامل، هذه المرة سأصنع كائنًا عقلانيًّا.» ولهذا الأمر اسم أيضًا؛ ألا وهو السادية. ما يفعله ويلز هنا هو المبالغة في تمجيد السادية؛ أي الألم كأفق ميتافيزيقي للوجود.

لكن ينطوي الأمر على أكثر مما يشمله وصف «السادية»؛ ففي إحدى المرات، سأل بريند يك مورو عن سبب «اتخاذ الشكل البشري نموذجًا له»، وأضاف قائلًا: «بدا لي حينذاك — ولا يزال يبدو لي — أن ثمة شرًّا غريبًا في ذلك الاختيار.» ومن الواضح للغاية أن إجابة مورو («أنه اختار هذا الشكل مصادفة») ليست الحقيقة. وربما يكون بريند يك قد اعتبر «الشر الغريب» — الذي يصيبه بالغثيان — كُفرًا. لكنني أعتقد أن الرواية تعبر عن شيء آخر يقودنا إلى اسم مختلف تمامًا؛ ألا وهو الحب.

تزخر «جزيرة الدكتور مورو» بالعديد من صور البشر الحيوانات، لكن هناك أنثى واحدة في الرواية ابتُكِرت بعناء (بالمعنى الحرفي للكلمة) من أنثى كوجر (من فصيلة القطط) على مدار الأحداث. وقد أشار العديد من النقاد إلى وجود معنى باطني جنسي هنا؛ فكلمة «قطة» كانت مرادفًا عاميًّا في العصر الفيكتوري لكلمة «مُومِس»؛ وويلز — الذي كان معروفًا بتعدد علاقاته الجنسية — سمَّى نفسه «جاجوار» (أي النمر المرقط) عندما كان مع محبوبته ريبيكا ويست، مثلما كانت هي «بانثر» (أي الفهد الأسود). يبدو الأمر بالتأكيد وكأن مورو يستحدث رفيقة لنفسه.

لكن هذا أيضًا السبب وراء سقوطه؛ فمع أن تذوق البشر الحيوانات للدم هو الذي شجعهم على التمرد، فإن هروب المرأة الكوجر هو ما أدى إلى هلاك مورو. وأعتقد أننا ندرك العدالة في ذلك؛ فقدرة هذه المرأة التي أُطلق لها العنان ستدمر بساطة الجنة التي صممها مورو. الحيوانات بسيطة، والألم بسيط، لكن الحب ليس بسيطًا، وقد أدى إلى انهيار فردوس مورو الوحشي. ويأتي اسم مورو أيضًا معبرًا عن ذلك، كما لو أن ويلز قد توصل إليه في لعبة أوراق التاروت التي يمكنها التنبؤ بنهايته؛ فاسمه مشتق من الكلمة الفرنسية "Lamoureux" وتعني المحبين. والإشارة هنا تهكمية، شأنها في ذلك شأن معالجته لفكرة المدينة الفاضلة (يوتوبيا) التي وضعها مور؛ فالحب هو الشيء الوحيد الذي تفتقر إليه هذه الرواية البسيطة الرائعة والمثيرة.

المقدمة

بقلم تشارلز إدوارد بريནديك

في الأول من شهر فبراير/شباط ١٨٨٧، فُقدت السفينة «ليدي فين» إثر اصطدامها بسفينة مهجورة عند خط عرض ١ درجة جنوبًا، وخط طول ١٠٧ درجة غربًا.

وفي الخامس من يناير/كانون الثاني ١٨٨٨ — أي بعد أحد عشر شهرًا وأربعة أيام من الحادث — وعند خط عرض ٥ درجة و٣ دقيقة جنوبًا، وخط طول ١٠١ درجة غربًا، عُثر على عمِّي إدوارد بريནديك — وكان نبيلًا يدير عملًا حرًّا سافر على متن السفينة «ليدي فين» في كالاو، واعتُبر في عداد الغرقى — في قارب صغير مكشوف تعذَّرت قراءة اسمه، لكن افتُرض أنه تابع للمركب الشراعي المفقود «إبيكاكوانا». وقد روى قصة غريبة للغاية عما حدث له حتى ظن الناس أنه فقد عقله. ومن ثمَّ، زعم أنه لا يستطيع تذكر أي شيء منذ لحظة هروبه من السفينة «ليدي فين». وصارت حالته مثار مناقشات بين علماء النفس حينئذٍ كنموذج غريب لفقدان الذاكرة المؤقت الذي يتبع التعرض لضغط بدني أو ذهني. وقد عثر المُوقِّع أدناه — ابن أخيه ووريثه — على القصة التالية بين أوراقه، لكن دون أن يرافقها أي طلب مؤكد بنشرها.

جزيرة «نوبل» — جزيرة بركانية صغيرة تخلو من السكان — هي الجزيرة الوحيدة المعروفة في المنطقة التي عُثر فيها على عمِّي. وصلت السفينة «إتش إم إس سكوربيون» إلى تلك الجزيرة في عام ١٨٩١، ونزل عليها مجموعة من البحارة، لكنهم لم يعثروا على أي كائن حي بها سوى نوع من العُث الأبيض الغريب، وبعض الخنازير والأرانب، وعدد

من الفئران العجيبة. لم يُحتفظ بأي نماذج من هذه الكائنات؛ لذا فالقصة غير مؤكدة في أهم جزء من تفاصيلها. ومع وضع ذلك في الاعتبار، فإنه يبدو ما من ضرر في نشر هذه القصة الغريبة وفقًا — على ما أظن — لنوايا عمي. ومن الأمور التي تؤيد رواية عمي على أقل تقدير أن أثره قد فُقد عند خط عرض ٥ درجة جنوبًا، وخط طول ١٠٥ درجة شرقًا، وظهر ثانيةً في البقعة نفسها من المحيط بعد أحد عشر شهرًا. ولا بد أنه عاش — بطريقة أو بأخرى — خلال هذا الفاصل الزمني. ومن الواضح أيضًا أن مركبًا شراعيًّا يحمل اسم «إبيكاكوانا» ويقوده رُبَّان سكِّير يُدعى جون ديفيس كان قد بدأ رحلته من أفريقيا بصحبة حيوان الكوجر (الأسد الأمريكي) وحيوانات أخرى على متنه في يناير/كانون الثاني ١٨٨٧، وأنه قد ذاع صيته في العديد من الموانئ في جنوب المحيط الهادئ، ثم اختفى أخيرًا في هذه البحار (مع وجود كمية كبيرة من لُب جوز الهند المجفف على متنه)، مبحرًا نحو مصيره المجهول من «بانيا» في ديسمبر/كانون الأول ١٨٨٧، وهو تاريخ يتوافق تمامًا مع قصة عمي.

الفصل الأول

في زورق نجاة «ليدي فين»

لا أعتزم إضافة أي شيء إلى ما كُتب سلفًا عن اختفاء السفينة «ليدي فين»؛ فكما يعلم الجميع، اصطدمت «ليدي فين» بسفينة مهجورة بعد إقلاعها من «كالاو» بعشرة أيام. وانتشلت السفينة المدفعية «إتش إم ميرتل» تلك السفينة الطويلة، وسبعة من طاقمها بعد ثمانية عشر يومًا. وأصبحت قصة ما عاناه هذا الطاقم من حرمان أقرب في شهرتها إلى أسطورة «ميدوسا» التي تفوقها بشاعةً. لكن يلزم عليّ الآن إضافة تفاصيل أخرى أكثر رعبًا — وغرابة بالتأكيد — إلى القصة المنشورة عن «ليدي فين»، فمن المعتقد حتى هذه اللحظة أن الرجال الأربعة الذين كانوا في زورق النجاة قد هلكوا، لكن هذا غير صحيح. ولديَّ أفضل دليل على ما أدَّعيه، وهو أنني أحد هؤلاء الرجال الأربعة.

لكن — قبل كل شيء — يجب أن أوضح أنه لم يكن هناك أربعة رجال على الإطلاق في الزورق؛ بل كان عددهم ثلاثة: كونستانس — الذي «رآه الرُّبان وهو يقفز في القارب المخصص له» (صحيفة ديلي نيوز، ١٧ مارس/آذار ١٨٨٧) — لم يصل إلينا، لحسن حظنا وسوء حظه، فقد نزل على الحبال المتشابكة أسفل حبال تثبيت الصاري الموجودة في سارية مقدمة السفينة المهشمة، وتعلق حبل صغير في كعبه، وهو يترك الحبال، فتعلق لحظة ورأسه متجه إلى أسفل، ثم سقط واصطدم بكتلة أو صارٍ طافٍ على الماء. جدّفنا في اتجاهه، لكنه لم يظهر ثانيةً.

وأقول لحسن حظنا أنه لم يصل إلينا، ويمكنني القول إنه من حسن حظه هو أيضًا؛ لأنه لم يكن لدينا سوى برميل صغير من الماء، وبعض البسكويت الرطب؛ فعلى قدر ما كان الحادث مفاجئًا، على قدر ما كنا غير مستعدين على الإطلاق لكارثة من أي نوع. وقد ظننا أن المؤن لدى الأشخاص الموجودين في القارب أكثر مما لدينا (بالرغم من أن الأمر لم يبدُ كذلك)، فحاولنا أن ننادي عليهم. لكن ما كان بإمكانهم سماعنا. وفي

صباح اليوم التالي عندما انقشع الضباب وتوقف المطر الخفيف — وهذا لم يحدث إلا بعد منتصف اليوم — لم نتمكن من رؤية أي أثر لهم. لم يكن باستطاعتنا الوقوف للنظر حولنا نظرًا لتأرجح الزورق. كانت الأمواج متلاطمة، وبذلنا الكثير من الجهد للحفاظ على توازن القارب. أما الرجلان اللذان هربا بعيدًا معي، فكان أحدهما يُدعى هيلمر، وكان راكبًا مثلي، والثاني بحار لا أعرف اسمه. كان رجلًا قصيرًا قويًّا، ويتلعثم في الكلام.

جرفتنا الأمواج، وكنا نتضور جوعًا. وبعد نفاد ما لدينا من ماء تعذَّبنا من عطش غير محتمل مدة ثمانية أيام كاملة. وبعد اليوم الثاني هدأ البحر شيئًا فشيئًا ليصل إلى حالة من الهدوء القابض للصدر. من المحال لأي قارئ عادي تخيل هذه الأيام الثمانية؛ فليس في ذاكرته — لحسن حظه — ما يمكّنه من تخيل هذا الأمر. بعد اليوم الأول، لم نتحدث كثيرًا معًا، واستلقينا في أماكننا في الزورق، وأخذ كلٌّ منا يحدق في الأفق أو يشاهد — بعيون يزداد جحوظها وإنهاكها كل يوم — الشقاء والضعف وهما يتملكان من رفيقيه تدريجيًّا. اشتد قيظ الشمس، ونفد ما لدينا من ماء في اليوم الرابع، وبدأنا بالفعل في التفكير في أمور غريبة، والتعبير عنها بأعيننا. ولكن أعتقد أن هيلمر لم ينطق بما كنا نفكر فيه جميعًا إلا في اليوم السادس. أتذكر أن أصواتنا كانت خافتة، وحناجرنا جافة، فانحنى بعضنا باتجاه بعض، ووفرنا كلماتنا. اعترضت على الاقتراح بكل ما أوتيت من قوة، مفضلًا إغراق الزورق والهلاك معًا وسط أسماك القرش التي كانت تتبعنا. لكن عندما قال هيلمر إنه إذا قُبل اقتراحه، فسوف نجد ما نشربه، أصبح البحَّار في صفه.

لكنني لم أوافق على إجراء القُرعة، وفي الليل أخذ البحار يهمس لهيلمر مرارًا وتكرارًا، في حين كنت أجلس في مقدمة الزورق ماسكًا مِطواتي في يدي، وإن كنت أشك أنه كانت لدي الشجاعة للدخول في عِراك. وفي الصباح وافقت على اقتراح هيلمر، واستخدمنا نصف بنس لنُجري القُرعة.

وجاءت نتيجتها بوقوع الاختيار على البحَّار. لكنه كان يفوقنا قوة، وما كان ليلتزم بنتيجة القرعة، فهاجم هيلمر بيديه. أخذا يتصارعان، وكادا يقفان على أقدامهما، فزحفت نحوهما لمساعدة هيلمر بإمساك ساق البحَّار؛ لكن البحَّار تعثَّر نظرًا لتمايل الزورق، وسقط الاثنان على الشفير وتدحرجا ليسقطا من فوق ظهر الزورق. وغرقا في الماء كما لو كانا حجرين. أتذكر أنني ضحكت على ذلك، وأتساءل الآن عن سبب ضحكي، فقد تملَّكني فجأة كما لو كان خارجًا عن إرادتي!

استلقيت على أحد مقاعد المُجدفين مدة لا أعلمها، وأخذت أفكر في أنني لو كنت أتمتع بالقوة، لشربت ماء البحر كي أصاب بالجنون وألقى حتفي سريعًا. وأثناء استلقائي في

ذلك المكان رأيت — دون أدنى اهتمام بما رأيته كما لو كان مجرد صورة عابرة — مركبًا شراعيًّا في الأفق متجهًا نحوي. من المؤكد أنني كنت شارد الذهن، لكنني أتذكر كل ما حدث بوضوح شديد. أتذكر كيف كان رأسي يتمايل مع أمواج البحر، والمركب الشراعي يتأرجح في الأفق، وأتذكر أيضًا — بالقدر نفسه من الوضوح — أنه كانت لدي قناعة آنذاك أنني قد توفيت، وأنني كنت أفكر في سخرية القدر متمثلة في وصول ذلك المركب متأخرًا بهذا القدر الضئيل من الوقت، وعدم إنقاذه لي وأنا حي.

ظللت مستلقيًا — فترة بدت لي كأمد الدهر — على مقعد المُجدف مسندًا رأسي إليه، ومراقبًا المركب الشراعي وهو يتبدى في الأفق شيئًا فشيئًا مع اقترابه (كان مركبًا صغيرًا، مجهزًا كمركب شراعي من مقدمته إلى مؤخرته). ظل المركب يتحرك للأمام وللخلف على مساحة متسعة، ذلك أنه كان يبحر عكس اتجاه الرياح. لم يخطر ببالي أبدًا أن أحاول جذب انتباه من عليه، ولا أتذكر أي شيء بوضوح بعد رؤيتي لجانبه وحتى وجدت نفسي في قُمرة صغيرة بمؤخرته. تحضرني ذكرى مبهَمة أني رُفعت على سلم المركب، وأن وجهًا كبيرًا أحمر مغطى بالنمش ومحاطًا بشعر أحمر كان يحدق بي من فوق جانب المركب. وترِد بذهني أيضًا صورة متقطعة لوجه داكن ذي عينين عجيبتين بالقرب من وجهي، لكنني ظننته كابوسًا، إلى أن قابلت ذلك الوجه ثانية. وأظن أنني أتذكر أن شيئًا ما انسكب بين أسناني؛ وهذا كل شيء.

الفصل الثاني

نحو مكان مجهول

كانت القُمرة التي وجدت نفسي فيها صغيرة، وغير مرتبة نوعًا ما. كان هناك رجل صغير السن قليلًا، ذو شعر أشقر، وشارب خشن بلون أصفر فاتح، وشفة سفلى متدلية يجلس بجواري ممسكًا بمعصمي. حدق كلٌّ منا في الآخر مدة دقيقة دون أن نتحدث. كانت عيناه رماديتين دامعتين، وخاليتين على نحو غريب من أي تعبير.

صدر في ذلك الوقت صوت بالأعلى بدا كصوت ارتطام هيكل سرير معدني، وزمجرة غاضبة خافتة لحيوان كبير الحجم، فتحدث الرجل في اللحظة ذاتها.

كرر سؤاله: «كيف حالك الآن؟»

أظن أنني أجبته قائلًا إنني بخير. لم يكن بإمكاني تذكر كيفية وصولي إلى ذلك المكان، ولا بد أنه رأى ذلك السؤال مرسومًا على وجهي، فصوتي كان مكتومًا.

«عُثر عليك في أحد الزوارق، وكنت تتضور جوعًا. كان الزورق يحمل اسم «ليدي فين»، وكانت هناك بقع دم على الشفير.» وقعت عيناي في تلك اللحظة على يدي التي بلغت من النحول ما جعلها تبدو كما لو كانت كيسًا قذرًا من الجلد مليئًا بعظام مفككة. واستحضرت حينذاك كل ما حدث على متن الزورق.

قال الرجل وهو يناولني جرعة من شراب مثلج قرمزي اللون: «تناول بعضًا من هذا.»

كان مذاقه كالدم، وجعلني أشعر أنني أقوى.

قال: «لقد حالفك الحظ بوجود طبيب على متن المركب الذي عثر عليك.» كان لعابه يسيل أثناء تحدثه، مع تلعثم بسيط.

قلت بهدوء وبصوت مبحوح بعد صمتٍ طويل: «ما هذه السفينة؟»

– «إنها سفينة تجارية صغيرة أبحرت من «أريكا» و«كالاو». لم أسأل قط من أين أتت في بادئ الأمر. إنها من أرض الحمقى على ما أظن. أنا نفسي كنت راكبًا صعدت على متنها من أريكا. صاحبها الأحمق — ورُبَّانها أيضًا الذي يُدعى ديفيس — فقد ترخيصه أو شيئًا من هذا القبيل. لقد أطلق على سفينته اسم «إبيكاكوانا» من بين كل الأسماء السخيفة اللعينة، لكنها تسير جيدًا ما دامت المياه كثيرة والرياح هادئة.»

بدأت عندئذٍ الضوضاء الصادرة من الطابق العلوي ثانيةً؛ زمجرة غاضبة وصوت بشري في آن واحد، ثم صوت آخر يأمر «أحمق لعينًا» أن يكف عما يفعله.

قال مُحدّثي: «كدت تموت؛ كان أمرًا وشيكًا بلا شك، لكنني أعطيتك بعض الدواء الآن. أتلاحظ القرح على ذراعك؟ إنها الحُقن. كنت فاقدًا الوعي نحو ثلاثين ساعة.»

أخذت أفكر بهدوء. قاطعني حينئذٍ نباح بعض الكلاب. سألته: «أيمكنني تناول الطعام؟»

رد: «نعم، وذلك بفضلي. لحم الضأن يُسلق على النار.»

قلت مؤكدًا: «نعم، يمكنني تناول بعض لحم الضأن.»

فقال بتردد خاطف: «لكنك تعلم أنني أتحرق شوقًا لمعرفة كيف آل بك الحال لتصير وحدك في الزورق.» وأظن أنني قد لاحظت بعض الشك في عينيه.

«تبًّا لهذا النباح!»

غادر الرجل القُمرة فجأة، وسمعته يتشاجر شجارًا عنيفًا مع شخص تراءى لي أنه يرد عليه بكلام مبهم. وبدا الأمر كما لو أنه انتهى بتسديد بعض اللكمات، لكنني كذَّبت أذني في هذا الأمر. صاح الرجل بعد ذلك في الكلاب، وعاد إلى القُمرة.

قال، وهو بمدخل الباب: «حسنًا؟ كنتَ على وشك أن تخبرني بقصتك.»

أخبرته باسمي — إدوارد برينديك — وكيف بدأ اهتمامي بالتاريخ الطبيعي كسبيل للتخلص من الملل الناتج عن استقلاليتي. بدا عليه الاهتمام بذلك، فقال: «لقد درست العلوم أيضًا، ونلت شهادتي في الأحياء من جامعة «يونيفرستي كوليدج»، فكنت أستأصل مبيض دودة الأرض، ولسان الحلزون، وغير ذلك الكثير. يا إلهي! لقد مضت عشرة أعوام. لكن استمر، اروِ لي ما حدث في الزورق.»

بدا عليه الرضا بصراحتي في رواية قصتي التي أخبرته إياها في عبارات موجزة تمامًا، لشعوري بالضعف الشديد. وعند انتهائي عاد على الفور إلى موضوع التاريخ الطبيعي، والدراسات الأحيائية التي يجريها. وأخذ يطرح عليَّ أسئلة متتالية عن طريق

«توتنهام كورت» وشارع جاور من قبيل: «هل لا يزال «كابلاتزي» في أوج ازدهاره؟ يا له من متجر!» من الجليّ أنه كان طالب طب عاديًّا للغاية. انتقل بعد ذلك بلا تروٍّ إلى موضوع المسارح الموسيقية، وقص عليّ بعض النوادر، وقال: «تركت كل ذلك منذ عشرة أعوام. كم كانت أمورًا مبهجة! لكنني كنت أحمق ... استنفدت ما لدي قبل سن الحادية والعشرين. أحسب كل شيء قد تغير الآن ... لكن عليّ أن أتفقد الآن ذلك الطاهي الأحمق لأرى ما يفعله بلحم الضأن الذي ستتناوله.»

عاد صوت الزمجرة بالطابق العلوي من جديد على نحو مفاجئ، وبغضب عارم روّعني. سألت الرجل وهو متجه للخارج: «ما هذا؟» لكن الباب كان قد انغلق. عاد ومعه لحم الضأن المسلوق، أثارتني رائحته الشهية حتى إنني نسيت أمر ضجيج الحيوان على الفور.

بعد يوم من التناوب بين التغذية والنوم بلغت من استرداد العافية ما مكّنني من النهوض من السرير، والوصول إلى الكوّة لأرى الأمواج الخضراء في أعقابنا. وقدّرت أن المركب الشراعي كان يسير في اتجاه هبوب الرياح. دخل مونتجومري — الرجل ذو الشعر الأشقر — مرة أخرى وأنا واقف في ذلك المكان، وطلبت منه بعض الملابس، فأعارني بعض ملابسه المصنوعة من نسيج قطني متين، لأن الملابس التي كنت أرتديها على الزورق قد أُلقيت من فوق سطح المركب حسبما ذَكر. كانت ملابسه فضفاضة إلى حد ما، إذ كان ضخم البنيان وطويل الأطراف.

أخبرني مونتجومري عرضًا أن الرُّبان يكاد يكون غارقًا في سُكْره داخل قُمرته. وعند ارتدائي للملابس أخذت أطرح عليه بعض الأسئلة بشأن وجهة السفينة، فقال إنها متجهة إلى هاواي، لكن يجب أن تُنزله أولًا.

قلت: «أين؟»

– «جزيرة ... حيث أعيش. ليس لها اسم، على حد علمي.»

حدق فيّ وشفته السفلية متدلية. بدا عليه الغباء المُتعمد فجأة حتى إنه خطر بذهني أنه أراد تجنب أسئلتي. وكان لدي من الحكمة ما حال دون طرحي مزيدًا من الأسئلة.

الفصل الثالث

الوجه الغريب

غادرنا القُمرة، والتقينا رجلًا عند السلم المؤدي إلى ظهر المركب يعترض طريقنا. كان يقف على السلم وظهره مواجه لنا، وينعم النظر من إطار الباب الأرضي. كان رجلًا مشوه الخلقة، قصير القامة، قوي البنية، أخرق، أحدب الظهر، يكسو الشعر رقبته، ورأسه غائر بين كتفيه. كان يرتدي ملابس زرقاء من الصوف المتين، وشعره أسود خشن كثيف على نحو غريب. سمعت الكلاب — التي لم أكن أراها — تنبح باهتياج، فانحنى الرجل للوراء على الفور ليلامس يدي التي مددتها لأردَّه عني، واستدار بسرعة الحيوانات.

صدمني كثيرًا ذلك الوجه الأسود الذي لاح أمامي فجأة، إذ كان مشوهًا على نحو لا مثيل له. أظهر الجزء الذي تبدى من الوجه شيئًا يشبه خطم الحيوانات، والفم الذي كان نصفه مفتوحًا ظهرت به أسنان بيضاء كبيرة لم أرها من قبل في فم بشري. كانت عيناه محتقنتين بالدم عند الأطراف وكادتا تخلوان من أي بياض حول الحدقتين البنيتين، وقد لاح بوجهه بريق غريب من الإثارة.

قال مونتجومري: «عليك اللعنة! لماذا لا تفسح الطريق؟» وثب الرجل ذو الوجه الأسود جانبًا دون أن ينبس ببنت شفة.

صعدت السلم محدقًا فيه على نحو غريزي، وظل مونتجومري أسفل السلم لحظة، وقال بتروٍّ: «أنت تعلم أنه لا عمل لك هنا، مكانك في المقدمة.»

انكمش الرجل ذو الوجه الأسود مرتعدًا، وتحدث ببطء، وبصوت أجش مريب، قائلًا: «إنهم … لا يسمحون لي بأن أكون في المقدمة.»

قال مونتجومري بنبرة متوعدة: «لا يسمحون لك بأن تكون في المقدمة! لكنني آمرك بالتقدم.» كان على وشك أن يقول شيئًا آخر، ثم نظر إليّ بالأعلى فجأة، واتبعني على السلم. توقفت لحظات في منتصف الطريق نحو الباب الأرضي، ونظرت للخلف والذهول

الشديد لا يزال يملؤني من القبح المفزع لهذا المخلوق ذي الوجه الأسود. لم أر في حياتي قط مثل هذا الوجه البغيض الصاعق، لكن — إذا كان التناقض معقولًا — شعرت في الوقت نفسه شعورًا غريبًا بأنه قد سبقت لي رؤية هذه الملامح والإيماءات التي أذهلتني للتو. وخطر ببالي بعدئذٍ أنني ربما أكون قد رأيته أثناء رفعي إلى ظهر المركب، لكن ذلك لم يقضِ تمامًا على شكوكي بوجود معرفة سابقة بيننا. لكن كيف يمكن لأحد أن تقع عيناه على وجه فريد كذلك، وينسى المناسبة التي رآه فيها على وجه التحديد.

أفاقتني من أفكاري حركة مونتجومري عند اتباعه لي، فاستدرت، ونظرت حولي على سطح المركب الشراعي الصغير. كنت شبه مستعد لما رأيته نظرًا لما سمعته مسبقًا من أصوات. من المؤكد أنني لم أر من قبل ظهر مركب بهذا القدر من الاتساخ؛ كان ممتلئًا بفضلات الجزر، وقطع الأعشاب الخضراء الممزقة، وقذارة تفوق الوصف. وكان هناك عدد من كلاب الصيد المخيفة مقيدة بسلاسل معلقة بالصاري الرئيسي، وقد بدأت في النباح والوثب تجاهي. وعند شراع الصاري الخلفي كانت أنثى الكوجر محتجزة داخل قفص حديدي أصغر بكثير من أن يسمح لها بالتحرك داخله. وفي أقصى جانب المركب الأيمن رأيت بعض الأقفاص الكبيرة التي تحتوي على عدد من الأرانب، فضلًا عن حيوان لاما وحيد محبوس في قفص بالأمام. وكانت الكلاب مكمَّمة بأحزمة جلدية، والكائن البشري الوحيد على ظهر المركب بحار هزيل وقف صامتًا عند المِقْوَد.

كانت الصواري القذرة والمرقَّعة الموجودة بأقصى المركب مشدودة في مواجهتها للرياح، وبدا من الأعلى أن المركب ترفع كل أشرعتها. كانت السماء صافية، والشمس في طريقها للغروب، وأمواج طويلة يعلوها نسيم وزَبد تجري أمامنا. تجاوزنا عامل الدفَّة، لنصل إلى حاجز مؤخرة المركب، وشاهدنا المياه تصل أسفل مؤخرة المركب مكونة زَبَدًا، والفقاعات تتراقص وتختفي في أعقابها. استدرت وفحصت ظهر المركب المنفِّر.

سألتُ: «هل هذا معرض حيوانات يجوب المحيط؟»

أجاب مونتجومري: «شيء شبيه بذلك.»

– «ما الغرض من هذه الحيوانات؟ تجارة أم عرض لكائنات نادرة؟ هل يظن الرُّبان أنه سيبيعهم في مكان ما بالبحار الجنوبية؟»

قال مونتجومري: «يبدو الأمر كذلك.» واستدار لمشاهدة أثر المركب في الماء ثانيةً.

سمعنا فجأة عُواءً ووابلًا عنيفًا من سباب بذيء يصدر من الباب الأرضي الموصل بالسلم، ورأينا الرجل المشوه ذا الوجه الأسود يتسلق السلم بجهد وعلى وجه السرعة،

ويلحق به على الفور رجل ضخم ذو شعر أحمر يرتدي قبعة بيضاء. وعندما رأت كلاب الصيد — التي كان قد أهلكها حينئذٍ النباح في وجهي — الرجل المشوه، اهتاجت بجنون وأخذت تنبح وتقفز، وهي تشد السلاسل التي تقيدها. تردد الرجل الأسود أمامها، وهو ما منح ذا الشعر الأحمر الوقت ليلحق به، ويلكمه لكمة شديدة بين عظمتي الكتف. وسقط البائس كثور صريع ليتدحرج في القذارة بين الكلاب التي بلغ بها الهياج مبلغه. ومن حسن حظه أن أفواهها كانت مكمَّمة. صاح الرجل ذو الشعر الأحمر صيحة ابتهاج، ووقف مترنحًا، وبدا لي أنه إما سينزل من الباب الأرضي عائدًا إلى الطابق السفلي، أو سيتقدم نحو ضحيته.

وما إن ظهر الرجل الثاني حتى هبَّ مونتجومري بعنف، وصاح بنبرة احتجاجية: «قف مكانك!» وظهر بحاران أعلى مقدمة المركب.

تدحرج الرجل ذو الشعر الأسود وهو يعوي بصوت عجيب تحت أقدام الكلاب، ولم يحاول أحد إنقاذه. وبذلت تلك الحيوانات المتوحشة أقصى جهدها لتنهش لحمه، بينما كانت تلكمه بكمائمها. تراقصت بأجسامها الرشيقة الرمادية على الجسم الأخرق المنبطح أرضًا. وأخذ البحاران الموجودان في المقدمة يصيحان تشجيعًا للكلاب، كما لو كان الأمر مباراة رياضية مثيرة. هتف مونتجومري في غضب، وسار بخطى واسعة على ظهر المركب، ولحقتُ به.

وفي لمح البصر نهض الرجل ذو الوجه الأسود وهو يترنح للأمام. وتعثر قبالة جانب المركب في الأغطية الواقية لحبال الصواري الرئيسية، حيث ظل يلهث ويحدق بغضب في الكلاب من ورائه. وأطلق الرجل ذو الشعر الأحمر ضحكة رضا.

قال مونتجومري وقد وضح تلعثمه قليلًا وهو يمسك بمرفقي الرجل ذي الشعر الأحمر: «انظر أيها الرُّبان! هذا لن يجدي نفعًا.»

وقفت خلف مونتجومري، واستدار الرُّبان قليلًا لينظر إلى مونتجومري بعيون سكير بائسة متبلدة الحس، وقال: «ما الذي لن يجدي نفعًا؟» ثم أضاف، بعد أن نظر لوجه مونتجومري نظرة ناعسة هنيهة: «جرَّاح لعين!»

هزَّ الرُّبان ذراعيه في حركة مفاجئة، ثم بعد محاولتين غير مجديتين أدخل قبضتيه المنمَّشتين في جيبيه الجانبيين.

قال مونتجومري: «هذا الرجل راكب؛ أنصحك بالابتعاد عنه.»

رد الرُّبان بصوت مرتفع: «لتذهب إلى الجحيم!» واستدار فجأة، وتمايل ناحية الجانب، ثم قال: «سأفعل ما يحلو لي على قاربي.»

ظننت أن مونتجومري سيبتعد عنه حينئذٍ — عندما لاحظت أن الرجل الفظ كان مخمورًا — لكن كل ما حدث هو أنه شحب قليلًا، واتبع الرُّبان إلى جانب السفينة.

قال مونتجومري: «انظر، أيها الرُّبان! هذا الرجل تابع لي، ويجب ألا تُساء معاملته. لقد نال كفايته من المضايقات منذ لحظة صعوده على متن هذا المركب.»

أخرست آثار الكحول الرُّبان دقيقة من الزمن، وكانت كلماته: «جراح لعين!» هي كل ما اعتبره ضروريًّا في تلك اللحظة.

لاحظت أن مونتجومري عنيد الطباع بدرجة طفيفة وأن عناده يقوى يومًا بعد يوم حتى إذا ما وصل أوجه، سيكون الصفح بعده من ضروب المستحيل. ولاحظت أيضًا أن هذا النزاع قد بدأ منذ فترة، وازداد حدة مع الوقت. قلت بنبرة تطفلية: «الرجل مخمور، ولن تصل معه إلى شيء.»

لوى مونتجومري شفته المتدلية على نحو قبيح، وقال: «دائمًا يكون مخمورًا. هل تعتقد أن ذلك يبرر تعدِّيه على الركاب؟»

بدأ الرُّبان حديثه، وهو يلوح بيديه على نحو غير ثابت نحو الأقفاص، قائلًا: «كان مركبي نظيفًا. انظر إليه الآن!» كان المركب بعيدًا كل البعد بالتأكيد عن النظافة. واصل الرُّبان حديثه: «طاقم ... يا له من طاقم نظيف محترم حقًّا!»

– «لقد وافقتَ على اصطحاب الحيوانات.»

– «ليت عيني ما وقعتا على جزيرتك اللعينة قط! ما الذي يريده ذلك الملعون من الحيوانات على جزيرة كتلك؟ ثم هذا الرجل التابع لك ... أتظن أنه رجل، إنه مخبول. وما له أن يوجد في مؤخرة المركب. أيحسب أن المركب اللعين بأكمله ملك له؟»

– «بدأ بحارة مركبك يضايقون الرجل البائس منذ لحظة صعوده على متن هذا المركب.»

– «هذا ما هو عليه بالضبط ... بائس لعين قبيح. لا يطيقه رجالي، وأنا نفسي لا يمكنني تحمله، هذا حالنا جميعًا. ولا يسعنا تحملك أنت أيضًا.»

ابتعد مونتجومري، وقال وهو يومئ برأسه: «على كل حال، اترك الرجل وشأنه.»

لكن الرُّبان عزم على الشجار في ذلك الوقت، فرفع صوته قائلًا: «إذا اقترب من هذا الجانب من المركب فسأمزق أحشاءه. ها أنا ذا أخبرك، سأمزق أحشاءه اللعينة! من تكون أنت لتملي عليّ ما أفعله. أنا رُبان المركب؛ رُبانه ومالكه. أنا القانون هنا؛ القانون ومطبقه. لقد اتفقت على اصطحاب رجل ومرافقه من أريكا وإليها، وإحضار بعض

الحيوانات في طريق العودة، ولم أتفق مطلقًا على اصطحاب لعين مجنون وجراح أحمق و...»

حسنًا، دعنا مما نَعَت به مونتجومري. رأيت مونتجومري يتقدم خطوة للأمام، ويقاطع كلام الرُّبان، فقلت له: «إنه مخمور»، وبدأ الرُّبان في توجيه سباب أكثر قبحًا من الذي وجهه من قبل. قلت موجهًا حديثي إليه في حدة: «اخرس!» وذلك لأنني أبصرت الخطر في وجه مونتجومري الشاحب من الغضب. وبذلك جلبت على نفسي وابلًا من السباب.

لكنني سعدت بأنني حُلْت دون وقوع ما بدا عراكًا وشيكًا، حتى وإن كان ثمن ذلك بُغض الرُّبان السكير لي. لا أظن أنني قد سمعت مثل هذا القدر من الكلام البذيء ينهال على هذا النحو المتواصل من فم أي شخص قط، مع أنني قد اعتدت صحبة العديد من غريبي الأطوار من قبل. كان يصعب عليّ تحمل بعض هذا الكلام، مع أني ليِّن العريكة بطبعي. لكنني عندما أخبرت الرُّبان أن يخرس كنت غافلًا بلا شك عن أنني لست سوى مشرد الْتُقِطَ من حطام أحد القوارب، بلا موارد، وأجرة سفري غير مدفوعة؛ لم أكن سوى عالة على هذا المركب. ذكَّرني الرُّبان بذلك على نحو شديد الوضوح؛ لكني حُلْت دون وقوع الشجار على أي حال.

الفصل الرابع

عند حاجز المركب

في تلك الليلة لاحت اليابسة في الأفق بعد غروب الشمس، وتوقف المركب وسط البحر. أوضح مونتجومري أن تلك وجهته. كانت بعيدة للغاية حتى إنني لم أتمكن من رؤية أي من تفاصيلها، وبدت لي حينئذٍ بقعة منخفضة السطح ذات لون أزرق باهت وسط البحر الممتزج به اللونان الأزرق والرمادي، ويتصاعد منها إلى السماء شريط دخان يكاد يكون عموديًّا.

لم يكن الرُّبان موجودًا على ظهر المركب عند إبصارنا لليابسة، فبعد أن صبَّ جام غضبه عليّ أخذ يترنح في طريقه إلى الأسفل، وأدركت أنه نام على أرضية قُمرته. تولى وكيل الرُّبان القيادة. كان ذلك الرجل النحيل الصموت الذي رأيناه خلف المِقود، ومن الواضح أنه كان غاضبًا من مونتجومري بدوره. لم يلتفت إلى أيٍّ منا على الإطلاق. تناولنا العشاء معه في هدوء يغلب عليه العبوس بعد بضع محاولات من جانبي للتحدث. صدمني أيضًا اتخاذ الرجال موقفًا شديد العدائية من رفيقي وحيواناته. ولاحظت تحفظ مونتجومري بشأن غرضه من وجود هذه الكائنات، وبشأن وجهته. وعلى الرغم من شعوري بأن الأمور أصبحت تزداد غرابة فلم أضغط عليه ليوضح شيئًا.

ظللنا نتحدث على سطح مؤخرة المركب إلى أن ملأت النجوم السماء. ساد الهدوء الشديد تلك الليلة، فيما عدا صدور صوت عابر في أعلى مقدمة المركب المضاءة بضوء أصفر، أو حركة أحد الحيوانات بين الحين والآخر. ربضت أنثى الكوجر مراقبةً إيانا بعيون لامعة، وبدت ككومة سوداء في أحد أركان قفصها. أما الكلاب فبدت نائمة آنذاك. عرض عليَّ مونتجومري سيجارًا.

تحدث معي عن لندن بنبرة تذكُّر شبه مؤلمة، وطرح عليّ كافة أنواع الأسئلة عن التغييرات التي شهدها المكان. تحدث كرجل أحب حياته في ذلك المكان، وحُرم منه فجأة

وبغير رجعة. أخذت أثرثر في القيل والقال قدر الإمكان، وأخذت غرابته تتشكل في ذهني طوال ذلك الوقت. كنت أتحدث إليه وأنا أُنعم النظر في وجهه الشاحب الغريب في الضوء الخافت لمصباح صندوق البوصلة الموجود خلفي، ثم نظرت إلى البحر المظلم الذي اختفت الجزيرة الصغيرة وسط عتمته.

بدا لي أن هذا الرجل قد ظهر من حيث لا أدري لينقذ حياتي فقط. وغدًا، سيهبط على الجزيرة، ويختفي ثانيةً من حياتي. حتى في ظل الظروف العادية، كان من شأن هذا الأمر أن يشغل تفكيري إلى حدٍّ ما. كان أغرب ما في الأمر حياة رجل مثقف على هذه الجزيرة الصغيرة المجهولة، فضلًا عن أمتعته الفريدة من نوعها. وجدتني أردد سؤال الرُّبان: ما غرضه من اصطحاب الحيوانات؟ ولماذا ادعى أنها لا تخصه عندما أبديت ملاحظتي بشأنها في بادئ الأمر؟ بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك سمة غريبة في مرافقه الشخصي خلفت أثرًا قويًّا فيّ. أضفت كل هذه الوقائع هالة من الغموض حول الرجل. وتملكّت مني هذه الأفكار، وألجمتني.

بحلول منتصف الليل كان حديثنا عن لندن قد انتهى، ووقفنا جنبًا إلى جنب متكئين على جانب المركب، ومحدقين على نحو حالم في البحر الساكن المضاء بالنجوم، كلٌّ منا مستغرق في أفكاره. أوحى الجو بالتعبير عن المشاعر، فشرعت في التعبير عن عرفاني بالجميل.

قلت بعد فترة من الوقت: «لقد أنقذت حياتي.»

فرد: «كان الأمر مصادفة ... مصادفة فحسب.»

– «أود التعبير عن شكري لمن ساعد في تحقق هذه المصادفة.»

– «لا داعي للشكر. كنتَ في حاجة للمساعدة، وكانت لديّ المعرفة، فحقنتك بالعقاقير، وأطعمتك. كنت أشعر بالضجر، ورغبت في شيء لأفعله. لو كنتُ منهك القوى في ذلك اليوم، أو لو أنك لم ترق لي، لكان من المثير التساؤل عن مكانك الآن.»

عكَّر ذلك مزاجي قليلًا. بدأت الحديث: «على أي حال ...»

فقاطعني: «كانت مصادفة، كما هو الحال مع كل ما يحدث في حياة الإنسان. الحمقى فقط هم من لا يدركون ذلك. لماذا أنا هنا الآن — منبوذًا من العالم المتحضر — بدلًا من أن أكون رجلًا سعيدًا أتمتع بكل ملذات لندن؟ السبب ببساطة هو أنني منذ أحد عشر عامًا فقدت صوابي مدة عشر دقائق في ليلة ملبَّدة بالغيوم.»

صمت، فقلت له: «وبعد؟»

– «هذا كل شيء.»

وعاد الصمت يخيم علينا. وبعد فترة وجيزة ضحك، وقال: «ثمة شيء في ضوء النجوم هذا يجعل لسان المرء يزل. كم أنا أحمق! لكنني أود إخبارك بالأمر بصورة أو بأخرى.»

– «أيًّا كان ما ستخبرني به، فتأكد أنه سيظل طي الكتمان ... إذا كان ذلك ما تخشاه.»

همَّ بالحديث، ثم هز رأسه بارتياب. فقلت له: «لا تفعل، فالأمر سواء لي. وفي نهاية الأمر من الأفضل أن تحتفظ بسرك. لن تجني شيئًا سوى بعض الارتياح في حال احترامي لثقتك بي. وإذا لم أفعل ... حسنًا؟»

تنهد مونتجومري مترددًا. شعرت أنني وضعته في موقف محرج، فلم يحترز في كلامه معي. والحقيقة أني لم أكن مهتمًّا بمعرفة ما قد يدفع طالبَ طب شابًّا لمغادرة لندن. كان لديّ تصورٌ ما للأمر. هززت كتفي، وسرت مبتعدًا عنه. وعند أعلى مؤخرة المركب كان أحدهم يقف صامتًا يشاهد النجوم. كان مرافق مونتجومري غريب الأطوار. نظر خلفه سريعًا عند تحركي، ثم أشاح بوجهه بعيدًا ثانيةً.

ربما يبدو الأمر غير ذي أهمية لك، لكنه وقع عليَّ كالصاعقة. كان الضوء الوحيد القريب منّا هو ضوء أحد المصابيح عند المِقوَد. استدار وجه ذلك المخلوق باتجاه الضوء لحظة واحدة فحسب وسط العتمة التي خيمت على مؤخرة المركب، ورأيت العينين — اللتين رمقتاني بنظرة خاطفة — تبرقان بلون أخضر باهت.

لم أكن أعلم آنذاك أن البريق المائل إلى الحمرة، على الأقل، ليس مُستغربًا في العيون البشرية، فبدا لي سمة غير آدمية تمامًا. وعصف ذلك الهيكل الأسود — بعينيه اللتين كانتا تتقدان نارًا — بكل أفكاري ومشاعري البالغة، وعاودتني برهة جميع مخاوف الطفولة، ثم تلاشى أثرها؛ هيكل أسود غريب الشكل، هيكل غير ذي أهمية يتكئ على حاجز مؤخرة المركب في ضوء النجوم. وفي تلك اللحظة تحدث إليّ مونتجومري.

قال: «أفكر في التوجه إلى الداخل، إذا كنتَ قد اكتفيت بهذا القدر.»

وجاء ردي غير متماشٍ مع ما كان يقوله. توجهنا للأسفل، وتمنى لي ليلة سعيدة عند وصولنا باب قُمرتي.

راودتني في تلك الليلة بعض الأحلام المزعجة بحق. ظهر المُحاق آنذاك متأخرًا، وانعكس ضوءه على هيئة شعاع أبيض في أنحاء القُمرة، ورسم شكلًا يشعر بالتشاؤم

على الألواح الخشبية للسرير الذي كنت أنام عليه. استيقظتْ بعد ذلك كلاب الصيد، وأخذت تنبح وتعوي، راودتني الأحلام على نحو متقطع، وكدت لا أنام حتى بزوغ الفجر.

الفصل الخامس

رجل مشرد

في الصباح الباكر — ثاني صباح لي بعد استردادي عافيتي، وأظنه الرابع بعد انتشالي من الزورق — استيقظت على أحلام مزعجة؛ أحلام عن أسلحة نارية، وأناس يصرخون. وانتبهت إلى صياح أجش يرِد من أعلى. فركت عيني، وظللت مستلقيًا أستمع إلى الضوضاء، مرتابًا بعض الوقت بشأن المكان الذي أنا فيه. سمعت بعدها صوت وقع أقدام حافية، وأشياء ثقيلة تُلقى هنا وهناك، وصوت صرير وقعقعة سلاسل قويًّا. سمعت هدير الماء والسفينة تستدير فجأة باتجاه آخر، وارتطمت موجة مُزبدة يمتزج فيها اللونان الأصفر والأخضر بالنافذة الصغيرة المستديرة ثم تبتعد عنها. ارتديت ملابسي بأقصى سرعة، وصعدت إلى ظهر المركب.

وعندما صعدت السلم رأيت في ضوء السماء المتوهجة — ذلك أن الشمس كانت تشرق لتوها — ظهر الرُّبان العريض وشعره الأحمر، ومن خلفه أنثى الكوجر تدور وهي مقيدة بحبال الأشرعة والصواري. بدا الحيوان البائس مذعورًا للغاية، وربض على أرضية قفصه الصغير. صاح الرُّبان: «انزلوا من سطح المركب! انزلوا! سيعود المركب نظيفًا لحظة تخلصنا منهم جميعًا.»

وقف الرُّبان معترضًا طريقي، فاضطررت أن أربت على كتفه لأصل إلى سطح المركب. استدار ناحيتي وقد فوجئ بي، فترنح للخلف بضع خطوات ليحدق في. كان من اليسير على أي شخص أن يدرك أن الرجل لا يزال مخمورًا. قال ببلاهة: «مرحبًا!» ثم أضاف وعيناه تلمعان: «يا سيد ... يا سيد ...»

فقلت له: «بريينديك.»

قال: «اللعنة على بريينديك. «اخرس»! هذا اسمك: السيد «اخرس»!»

ما كان الرد على ذلك الهمجي ليجدي معه نفعًا، لكنني لم أتوقع مطلقًا ما فعله بعد ذلك؛ فقد أشار بيده إلى سُلم المركب الذي كان يقف عنده مونتجومري متحدثًا إلى رجل ذي شعر أبيض كثيف يرتدي سروالًا خفيفًا قذرًا أزرق اللون، يبدو أنه صعد لتوه على متن القارب. صاح الرُّبان بأعلى صوته: «من هنا، سيد «اخرس» اللعين، من هنا.»

استدار مونتجومري ورفيقه عندما تحدث الرُّبان.

قلت له: «ماذا تقصد؟»

– «من هنا، سيد «اخرس» اللعين، هذا ما أقصده. لتنزل من المركب على الفور سيد «اخرس». نحن نخلي المركب، وننظفها بالكامل. وعليك أن تنزل منها.»

حدقت فيه مصعوقًا، ثم خطر ببالي أن هذا بالضبط ما كنت أبتغيه؛ فضياع فرصة الذهاب في رحلة أنا الراكب الوحيد فيها مع هؤلاء القوم المتناحرين لم يكن بالأمر الذي يُرثى له. واستدرت ناحية مونتجومري.

قال رفيق مونتجومري باقتضاب: «لا يمكننا اصطحابك معنا.»

قلت مذعورًا: «لا يمكنكما اصطحابي!» لم أر في حياتي قط وجهًا أكثر صرامة وحزمًا من وجه ذلك الرجل.

بدأت حديثي مع الرُّبان: «اسمع ...»

فقال الرُّبان: «انزل! لم يعد في هذا المركب متسع للحيوانات والوحوش، ومن هم أسوأ من الحيوانات. لتنزل من المركب ... يا سيد «اخرس». إذا لم يوافقوا على اصطحابك معهم فمصيرك لأمواج البحر. لكن بأي حال من الأحوال عليك أن تذهب مع أصدقائك. لن أقترب من هذه الجزيرة اللعينة أبدًا! لقد نلت كفايتي منها.»

قلت راجيًا: «لكن، مونتجومري ...»

لوى شفته السفلية، وهز رأسه في يأسٍ باتجاه الرجل ذي الشعر الرمادي الذي يقف بجانبه، مشيرًا إلى عجزه عن مساعدتي.

قال الرُّبان: «سأنظر في أمرك حالًا.»

عندها بدأت مُشادَّة مثيرة ثلاثية الأطراف. أخذت أناشد كل رجل من الثلاثة بالتعاقب، ترجيت أولًا ذا الشعر الرمادي ليسمح لي بالنزول على الجزيرة، ثم الرُّبان السكير ليتيح لي البقاء على ظهر المركب، بل إنني أخذت أيضًا أتضرع بصوت عالٍ إلى البحارة. ولم ينبس مونتجومري ببنت شفة، وما كان منه سوى أن هز رأسه. وكانت العبارة التي لازمت الرُّبان هي: «ستنزل من المركب، آمرك بذلك. اللعنة على القانون! أنا السيد هنا.»

وعلي أن أعترف أنني في النهاية فقدت صوتي في خضم الوعيد العنيف للرُّبان. وشعرت بغضب هيستيري عارم، فتوجهت إلى مؤخرة المركب، وحدقت في كآبة وشرود.

وفي تلك الأثناء أخذ البحارة ينجزون سريعًا مهمة إنزال المتاع والحيوانات المحبوسة في أقفاصها من فوق ظهر المركب. كان هناك قارب كبير منصوب عليه شراعان رباعيًّا الأضلاع أسفل جانب المركب المحجوب عن الريح. وكانت تُنقل إليه تلك الأمتعة الغريبة. لم أر آنذاك البحارة الذين أتوا من الجزيرة ليتلقوا الأمتعة، لأن جانب المركب كان يحجب هيكل القارب عن نظري.

لم يلتفت إليّ مونتجومري أو رفيقه على الإطلاق، وانشغلا بمساعدة البحارة الأربعة أو الخمسة الذين كانوا ينزلون المتاع، وبتوجيههم. تقدم الرُّبان ليتدخل في العمل بدلًا من أن يقدم يد العون. وامتزجت بداخلي مشاعر القنوط واليأس. وأثناء وقوفي منتظرًا إتمام ما كان يجري لم أستطع مغالبة الضحك مرة أو مرتين على ورطتي الكبرى. شعرت بهزال شديد لعدم تناولي وجبة الإفطار. يجرد الجوع ونقص كريات الدم المرء من إنسانيته بالكامل. أدركت تمامًا أنني أفتقر إلى القدرة على التصدي لقرار الرُّبان بطردي من المركب، أو فرض نفسي على مونتجومري ورفيقه. لذا انتظرت بسلبية ما يخبئه لي القدر، واستمر نقل ممتلكات مونتجومري للقارب كأني لم أكن هناك.

انتهى العمل، وحان وقت الصراع. دُفِعت إلى سلم المركب، وأنا أقاوم أقل المقاومة. لاحظت في تلك اللحظات غرابة الوجوه بنية اللون للرجال الذين كانوا برفقة مونتجومري في القارب. لكن القارب كان قد امتلأ بالكامل، وانطلق يشق طريقه سريعًا. وظهرت أسفل مني هوة آخذة في الاتساع من المياه الخضراء، دفعت نفسي للخلف بكل قوتي لتجنب السقوط على رأسي.

كان البحارة الموجودون في القارب يصيحون باستهزاء، وسمعت مونتجومري يوجه إليهم السباب. دفعني بعد ذلك الرُّبان سريعًا — بمساعدة وكيله وأحد البحارة — نحو مؤخرة المركب. كان زورق نجاة «ليدي فين» مقطورًا بالخلف؛ نصفه ممتلئ بالماء، وبلا مجاديف وخاليًا تمامًا من أي مؤن. رفضت الصعود على متنه، ودفعت جسمي بأكمله بقوة على ظهر المركب. وفي النهاية قذفوني فيه باستخدام حبل — فلم يكن لديهم سلم بمؤخرة المركب — ثم قطعوه لتجرفني الأمواج معها.

انجرفت ببطء بعيدًا عن المركب. وأخذت أشاهد في شيء من الذهول البحارة وهم يشرعون في رفع الأشرعة والصواري، واستدار المركب ببطء وثبات باتجاه الرياح. وخفقت

الأشرعة، وانتفخت عند هبوب الرياح عليها. حدقت في جانب المركب المتآكل بفعل العوامل الجوية وهو يميل على نحو شديد الانحدار نحوي، ثم ابتعد عن مرمى بصري.

لم أدر رأسي لأتابعه. في بادئ الأمر لم أكد أصدق ما حدث. جثمت على أرضية الزورق مذهولًا ومحدقًا في ذهول في البحر الخاوي الملوث بالزيت. وأدركت بعد ذلك أنني أعيش تلك الكارثة من جديد، فأنا الآن شبه غارق. وبالنظر ثانيةً من الشفير رأيت المركب يقف بعيدًا عني، والرُّبان ذا الشعر الأحمر يهزأ بي عند حاجز مؤخرة المركب. وعند النظر إلى الجزيرة رأيت القارب وحجمه يزداد صغرًا مع اقترابه من الشاطئ.

تبدت لي قسوة هذا الهجران فجأة. لم تكن لدي أي وسيلة للوصول إلى اليابسة سوى أن تجرفني الأمواج إلى هناك. وعليك أن تتذكر أني كنت لا أزال واهنًا نتيجة ما تعرضت له في المركب. كنت أتضور جوعًا، وأشعر بالدوار، أو ربما كنت بحاجة إلى مزيد من الشجاعة. لكن نظرًا لما كان عليه حالي، بدأت فجأة في البكاء والنشيج على نحو لم يحدث لي منذ كنت طفلًا صغيرًا. سالت الدموع على وجهي. وفي نوبة يأس، ضربت بقبضتيَّ الماء الموجود في قاع الزورق، وركلت الشفير ركلًا عنيفًا، ودعوت الرب بصوت مرتفع أن يقبض روحي.

الفصل السادس

البحارة القبحاء

عندما رآني سكان الجزيرة والأمواج تجرفني بالفعل، أشفقوا عليَّ. كنت أنجرف ببطء نحو الشرق مقتربًا من الجزيرة بانحدار، ورأيت حينذاك — وشعور هيستيري بالراحة ينتابني — القارب يستدير ويعود باتجاهي. كان ممتلئًا عن آخره، وعند اقترابه مني تمكنت من ملاحظة رفيق مونتجومري عريض المنكبين ذي الشعر الأبيض، يجلس محشورًا مع الكلاب والعديد من صناديق التعبئة عند حبال أشرعة مؤخرة القارب. ثبَّت ذلك الرجل نظره عليّ دون أن يتحرك أو يتكلم، في حين حملق رجل أعرج أسود الوجه فيّ بالثبات نفسه، وهو في مقدمة المركب بالقرب من أنثى الكوجر. كان هناك أيضًا ثلاثة رجال آخرون يبدو مظهرهم غريبًا ووحشيًّا، أخذت كلاب الصيد تزمجر بعنف تجاههم. وصل مونتجومري — الذي كان يتولى القيادة — بالقارب إلى جانبي، ثم نهض ليمسك بحبل توثيق زورق النجاة الذي كنت عليه، ويربطه في ذراع الدفة ليسحبني، فلم يكن هناك متسع على متن القارب.

بحلول ذلك الوقت كنت قد أفقت من الحالة الهيستيرية التي انتابتني، فأجبت نداءه بشجاعة عندما اقترب مني. أخبرته أن الزورق يكاد يكون مغمورًا بالمياه، فألقى إليّ بدلو خشبي. وارتج جسمي للخلف عند ربط الحبل بين القارب وزورق النجاة، وانشغلت بعض الوقت بإحكام ربطه.

لم أحظ بفرصة إلقاء نظرة أخرى على من كانوا على متن القارب إلا عندما أزحت المياه من الزورق؛ إذ عندما فعلت ذلك، أصبح الزورق مناسبًا تمامًا.

لاحظت أن الرجل ذا الشعر الأبيض لا يزال يحدق فيَّ بثبات، لكن بتعبير يدل — كما أظن الآن — على بعض الحيرة. وعندما التقت عينانا نظر لأسفل باتجاه كلب الصيد الذي كان يجلس بين ركبتيه. كان رجلًا قوي البنية كما ذكرت سابقًا، ذا جبهة صافية،

وملامح حادة إلى حد ما، لكن عينيه كانتا تتميزان بارتخاء الجلد أعلى الجفنين، وهذا ما يتسم به المرء غالبًا مع التقدم في السن. وقد كان لتدلي فمه الكبير عند الجانبين دوره في إضفاء طابع من الحزم العدائي عليه. تحدث ذلك الرجل إلى مونتجومري بصوت خفيض لدرجة لا تسمح لي بسماعه. وانتقلت ببصري إلى الرجال الثلاثة التابعين له؛ كانوا طاقمًا غريبًا حقًّا. لم أر سوى وجوههم، لكن ثمة شيء في تلك الوجوه — لا أعلم ما هو — أصابني بشعور غريب بالاشمئزاز. ثَبَّتُّ نظري عليهم، واستمر ذلك الانطباع، على الرغم من عجزي عن التوصل إلى السبب الذي أدى إليه. بدوا لي حينها ذوي بشرة بنية، لكن أطرافهم كانت ملفوفة على نحو غريب بأقمشة بيضاء خفيفة متسخة تصل إلى أقدامهم وأصابع أيديهم. لم أر في حياتي قط رجالًا أجسامهم مغطاة بهذه الصورة، ولا نساء هكذا إلا في الشرق. كانوا يرتدون عِمامات أيضًا، وأنعموا النظر فيّ من تحتها بوجوههم التي تشبه وجوه الجن الصغار؛ وجوه يبرز منها فك سفلي وعيون لامعة. كان شعرهم أسود اللون ومسترسلًا، أشبه بشعر الخيل. وبدا لي حينها أنهم عندما يجلسون تفوق قامتهم قامة أي عِرق بشري رأيته من قبل. أما الرجل ذو الشعر الأبيض، الذي كنت أعلم جيدًا أن طوله لا يقل عن ستة أقدام، فقد جلس وقامته منخفضة بكثير عن أي واحد من الثلاثة. اكتشفت بعد ذلك أن طولهم جميعًا لم يكن يفوق طولي، لكن جذوعهم كانت طويلة طولًا غير طبيعي، وأفخاذهم قصيرة ومعوجة اعوجاجًا غريبًا. على أي حال، كانت مجموعة قبيحة تذهل من يراها. وظهر من فوق رءوسهم — أسفل الشراع الأمامي رباعي الأضلاع — رجل عيناه تبرقان في الظلام.

عندما حدقت فيهم نظروا إليَّ في المقابل، ثم أشاحوا بوجوههم واحدًا تلو الآخر متفادين نظرتي المباشرة. وخطر في بالي أنني ربما كنت أسبب لهم إزعاجًا، فوجهت نظري إلى الجزيرة التي كنا نقترب منها.

كانت جزيرة منخفضة السطح، مغطاة بنباتات كثيفة، يغلُب عليها نوع من النخيل لم أره من قبل. وهناك خيط بخار رفيع أبيض يتصاعد بميل إلى ارتفاع هائل، ثم يتبدد كزغب الطير. صرنا الآن في أحضان خليج متسع محاط من كلا الجانبين بصخور شاطئية منخفضة. كان يوجد على الشاطئ رمال رمادية باهتة، وقمم جبلية شاهقة يزيد ارتفاعها تقريبًا عن ستين أو سبعين قدمًا فوق سطح البحر، وعدد من الأشجار والشجيرات المتناثرة في الأرجاء على نحو غير منتظم. وفي منتصف المسافة لأعلى سياج صخري مربع الشكل ومختلف الألوان، اكتشفت فيما بعد أنه مكون في جزء منه من

المرجان وجزء آخر من الحمم البركانية المكونة من الخِفاف. وتبدى سقفان من القش وسط هذه المنطقة المسيَّجة.

وقف رجل في انتظارنا عند حافة المياه. وخُيِّل إليّ — ونحن لا نزال بعيدًا عن الشاطئ — أنني رأيت بعض الكائنات الأخرى شديدة الغرابة تعدو في الأحراش فوق المنحدر، لكنني لم أر أيًّا منها عند اقترابنا من الجزيرة. كان ذلك الرجل متوسط الحجم، ووجهه أسود زنجي، وفمه كبير ذو شفتين رفيعتين للغاية، وذراعاه نحيلتان على نحو فريد، وقدماه رفيعتان طويلتان، وساقاه مقوستان. كان يقف ويمد وجهه الكبير للأمام محدقًا فينا. كان يرتدي ملابس تشبه ملابس مونتجومري ورفيقه ذي الشعر الأبيض؛ سترة وسروالًا من الصوف الأزرق المتين.

مع اقترابنا، بدأ ذلك الرجل في الجري جيئة وذهابًا في حركات غاية في الغرابة. وبأمر من مونتجومري هبَّ الرجال الأربعة الموجودون في القارب وهم يأتون بحركات خرقاء غريبة، وأنزلوا الأشرعة رباعية الأضلاع. أدار مونتجومري الدفة، ووجَّهنا ناحية مرسى صغير محفور في الشاطئ، ثم أسرع ناحيتنا الرجل الذي كان يقف على الشاطئ. لم يكن ذلك المرسى — كما أُطلِق عليه — سوى خندق بسيط يتسع في تلك المرحلة من المد والجزر لذلك القارب الطويل.

سمعت صوت ارتطام مقدمة القارب بالرمال، دفعت زورق النجاة بعيدًا عن دفة القارب باستخدام الدلو الخشبي محررًا حبل توثيق القارب، ونزلت على اليابسة. تدافع الرجال الثلاثة المضمَّدون على الرمال على نحو أخرق، وبدءوا على الفور في إنزال الحمولة بمساعدة الرجل الذي كان على الشاطئ. وصدمتني بوجه خاص الحركات الغريبة لأرجل البحارة المضمدة والمعصبة، لم تكن متيبسة ولكن معوجة على نحو غريب، كما لو كانت متصلة في موضع خاطئ. كانت الكلاب لا تزال تزمجر، وتشد سلاسلها خلف هؤلاء الرجال، عندما نزل بها الرجل ذو الشعر الأبيض إلى الشاطئ.

تحدث الرجال الثلاثة ضخام الجثة معًا بأصوات حنجرية غريبة، وبدأ الرجل الذي كان بانتظارنا على الشاطئ في الثرثرة معهم بحماس — متحدثًا بلغة أجنبية على ما أظن — أثناء إمساكهم بالحمولة الموجودة بالقرب من مؤخرة القارب. لقد سمعت ذلك الصوت في مكان ما من قبل، لكنني لا أتذكر أين. وقف الرجل ذو الشعر الأبيض كابحًا جماح الكلاب الستة، ممطرًا إياها بوابل من الأوامر وبصوت يعلو على صوت ضجيجها. نزل مونتجومري أيضًا إلى الشاطئ بعد أن أوقف حركة الدفة، وأخذ الجميع في إفراغ

الحمولة. كنت قد بلغت حينئذٍ من الإنهاك الناتج عن عدم تناولي الطعام فترة طويلة وتعرض رأسي المكشوف للشمس ما حال دون تقديمي يد العون لهم.

بدا في تلك الأثناء أن الرجل ذا الشعر الأبيض قد تذكر وجودي، فتوجه نحوي وقال: «تبدو وكأنك لم تتناول إفطارك.»

كانت عيناه الصغيرتان سوداويين براقتين أسفل حاجبيه الكثيفين. قال: «عليَّ أن أعتذر عن ذلك. أنت الآن ضيفنا، ويلزم علينا العمل على راحتك، مع أنك لست مدعوًّا كما تعلم.»

أخذ يتفحص وجهي باهتمام، وقال: «يقول مونتجومري إنك مثقف يا سيد بريnديك ولديك معرفة بالعلوم. أيمكنني الاستفسار عما يعنيه ذلك؟»

أخبرته أنني قضيت بضعة أعوام في «الكلية الملكية للعلوم»، وأجريت بعض الأبحاث في مجال الأحياء تحت إشراف هاكسلي، فرفع حاجبيه قليلًا عند سماعه ذلك.

قال وقد بدا على أسلوبه شيء من الاحترام: «ذاك يغيِّر من الوضع قليلًا يا سيد بريnديك. بالمصادفة، نحن هنا اختصاصيو أحياء. وهذا مركز لدراسة الأحياء إن جاز القول.» أخذ ينظر إلى الرجال ذوي الملابس البيضاء الذين انشغلوا بسحب أنثى الكوجر على عجلات باتجاه الفناء المحاط بأسوار، ثم أضاف: «أنا ومونتجومري، على الأقل.»

استطرد في حديثه: «لا يمكنني إخبارك متى سيمكنك الفرار من هنا، فنحن بمنأى هنا عن أي مكان آخر. وقد يمر عام أو أكثر دون أن تقع أعيننا على أي سفينة.»

تركني فجأة، وتقدم على الشاطئ متجاوزًا هذه المجموعة من الأشخاص، ودخل المنطقة المسيَّجة على ما أظن. أما الرجلان الآخران، فكانا مع مونتجومري يقِيمان كومة من عبوات أصغر حجمًا على عربة نقل منخفضة. كانت اللاما وأقفاص الأرانب لا تزال على القارب، وكلاب الصيد مقيدة بمقاعد المجدِّفين. انتهت عملية التجميع، وأمسك الرجال الثلاثة بالعربة، وبدءوا في دفع الحمولة الثقيلة خلف أنثى الكوجر. وفي تلك الأثناء كان مونتجومري قد تركهم، وعاد إليّ، وهو يمد يده باتجاهي.

قال مونتجومري: «من جانبي، أنا سعيد. كان ذلك الرُّبان لعينًا أحمق، وكنت ستواجه أمورًا مثيرة بسببه.»

رددت: «يرجع لك الفضل في إنقاذي للمرة الثانية.»

– «ذلك أمر نسبي. فستكتشف أن هذه الجزيرة مكان عجيب ملعون. إنني أصدقك القول. لو كنت مكانك، لانتبهت لتصرفاتي جيدًا. إنه …» ثم تردد وبدا أنه غيَّر رأيه بشأن ما كان سينطق به، وقال: «أرجو أن تساعدني بشأن هذه الأرانب.»

كان أسلوبه مع الأرانب فريدًا من نوعه. تقدمتُ معه، وساعدته في جرّ أحد الأقفاص على الشاطئ. وما إن فعلنا ذلك حتى فتح باب القفص، وأماله على أحد جانبيه مخرجًا ما به من كائنات على الأرض لتسقط مكدسة محاولة التخلص بعضها من بعض. صفق بيديه لتنطلق الأرانب على الفور بوثبتها المميزة على الشاطئ، وبلغ عددها نحو خمسة عشر أو عشرين أرنبًا. قال مونتجومري: «لتتكاثروا وتتزايدوا، يا أصدقائي. لتملئوا الجزيرة من جديد، فنحن نعاني حتى هذه اللحظة نقصًا في اللحوم هنا.»

بينما كنت أشاهدها وهي تبعد عن الأنظار، عاد الرجل ذو الشعر الأبيض ممسكًا بزجاجة من شراب البراندي، وبعض البسكويت. قال بنبرة صوت بدت مألوفة أكثر من أي وقت مضى: «إليك بعض الطعام يا بريند يك».

لم أُحدث ضجة، وأخذت أتناول البسكويت على الفور، في حين ساعد الرجل ذو الشعر الأبيض مونتجومري في إطلاق سراح عدد آخر من الأرانب بلغ نحو عشرين أرنبًا. لكن حُملت ثلاثة أقفاص كبيرة إلى المنزل ومعها أنثى الكوجر. لم أَمس البراندي لأنني ممتنع عن المُسكِرات منذ مولدي.

الفصل السابع

الباب الموصد

ربما سيدرك القارئ أن كل شيء من حولي كان في بادئ الأمر غريبًا للغاية، وأن موقفي كان نتاج مغامرات غير متوقعة على الإطلاق حتى إنني لم أفطن للغرابة النسبية التي كان عليها هذا الأمر أو ذاك. اتبعت اللاما على الشاطئ، ولحق بي مونتجومري الذي طلب مني عدم دخول المنطقة المسيجة بسياج صخري. لاحظت حينها أن قفص أنثى الكوجر وكومة المتاع قد وُضِعا خارج مدخل تلك المساحة رباعية الزوايا.

استدرت ورأيت أن القارب أُفرغ من حمولته، ونفدت ما به من مؤن ثانيةً، وسُحب إلى الشاطئ. كان الرجل ذو الشعر الأبيض يسير باتجاهنا. وجَّهَ حديثه إلى مونتجومري قائلًا: «نحن الآن بصدد مشكلة ذلك الضيف غير المدعو، فماذا سنفعل بشأنه؟»

قال مونتجومري: «لديه معرفة بالعلوم.»

قال الرجل الأشيب، مشيرًا برأسه إلى المنطقة المسيجة وعيناه تزداد لمعانًا: «كم أنا متلهف للعودة للعمل ثانيةً، مستخدمًا هذه الأغراض.»

رد مونتجومري بنبرة بعيدة تمامًا عن أي مشاعر ودية: «أنا موقن من ذلك.»

– «لا يمكننا إرساله إلى هناك، أو تخصيص الوقت لبناء كوخ جديد له. وبالتأكيد لا يمكننا أيضًا الوثوق به بعد.»

قلت: «أنا تحت تصرفكما.» ولم تكن لديّ أي فكرة عما كان يعنيه بعبارة «إلى هناك».

رد مونتجومري: «لقد كنت أفكر في الأمور نفسها. هناك غرفتي ذات الباب الخارجي …»

قال الرجل الأكبر سنًّا على الفور، وهو ينظر إلى مونتجومري: «بالضبط!» وتوجهنا جميعًا إلى المنطقة المسيجة. وأردف الرجل: «أستميحك عذرًا يا سيد برينديك، على هذا

الغموض، لكنك يجب أن تتذكر أنك غير مدعو. تنطوي منشأتنا الصغيرة هنا على سر ما. الحقيقة أن الأمر ليس مفزعًا للغاية لأي شخص عاقل. لكن الآن، نظرًا لأننا لا نعرفك …»

وجاء ردي: «قطعًا! فمن الحماقة أن أشعر بالإهانة لعدم الثقة فيَّ.»

لوى فمه الكبير ليرسم ابتسامة باهتة على وجهه — كان شخصًا عابسًا يبتسم وجانبا فمه مائلان لأسفل — وانحنى تعبيرًا عن تقديره لكياستي. تجاوزنا المدخل الرئيسي للمنطقة المسيجة؛ كان بوابة خشبية ضخمة موصدة ومحاطة بإطار من الحديد، وحمولة القارب موضوعة خارجها، وعند الزاوية وصلنا إلى مدخل صغير لم ألاحظه من قبل. أخرج الرجل الأشيب مجموعة من المفاتيح من جيب سترته الزرقاء المشحَّمة، وفتح الباب، ودخل. الأمر الغريب الذي أدهشني هو تلك المفاتيح والإغلاق المحكم للمكان، بالرغم من أنه تحت نظره.

اتبعته لأجد نفسي في غرفة صغيرة، مؤثثة بأثاث بسيط ومريح في الوقت نفسه، وبابها الداخلي المفتوح جزئيًّا يُشرف على فناء مبلط. أغلق مونتجومري ذلك الباب الداخلي في الحال. كانت هناك أرجوحة شبكية معلقة في زاوية الغرفة الأكثر ظلمة، ونافذة صغيرة غير مصقولة يؤمنها قضيب معدني وتطل على البحر.

أخبرني الرجل الأشيب أن هذه ستكون غرفتي، وأن الباب الداخلي لها — الذي سيوصده من الجانب الآخر «خوفًا من الحوادث» — سيكون هو الحد الفاصل بيني وبين ما بالداخل. وأشار إلى وجود كرسي مريح قابل للطي أمام النافذة، ومجموعة كتب قديمة اكتشفت أن أغلبها عن الجراحة وإصدارات لأعمال كلاسيكية إغريقية ولاتينية — لغات تشق علي قراءتها — على رف بالقرب من الأرجوحة الشبكية. ترك الرجل الأشيب الغرفة من الباب الخارجي، كما لو كان يتجنب فتح الباب الداخلي مرة أخرى.

قال مونتجومري: «عادةً ما نتناول طعامنا هنا.» ثم غادر المكان بشيء من الارتياب في أعقاب الرجل الآخر. وسمعته ينادي: «مورو»، ولا أعتقد أنني لاحظت الأمر في تلك اللحظة، لكنني عندما تفحصت الكتب التي كانت على الرف تنبهت وتساءلت: أين سمعت اسم مورو من قبل؟

جلست أمام النافذة، وأخرجت البسكويت المتبقي معي، والتهمته بشهية مفتوحة. وأخذت أتساءل: «مورو؟»

عندما نظرت من النافذة رأيت أحد هؤلاء الرجال الغامضين الذين تغطي أجسامهم أربطة بيضاء وهو يسحب أحد صناديق التعبئة على الشاطئ. حجبه في تلك اللحظة إطار

النافذة عن نظري، ثم سمعت صوت مفتاح يوضع في القفل الموجود خلفي، ويتحرك فيه. وبعد فترة قصيرة سمعت عبر الباب الموصد ضجيج كلاب الصيد التي أُحضرت الآن من الشاطئ. لم تكن تنبح، بل تتشمم وتزمجر على نحو غريب. تمكنت من سماع وقع خطواتها المتسارعة، وصوت مونتجومري وهو يهدئها.

تأثرتُ أيّما تأثر بالسرية الشديدة التي أحاط بها هذان الرجلان محتويات المكان، وأخذت أفكر بعض الوقت في ذلك الأمر، وفي الشعور غير القابل للتفسير بأن اسم مورو مألوف لي. لكن كم هي غريبة ذاكرة الإنسان! لم أتمكن حينذاك أن أربط بين الاسم الشهير وبين صاحبه. وانتقلت بفكري بعد ذلك إلى الغرابة غير المحددة لذلك الرجل المشوه المغطى بضمادات بيضاء على الشاطئ. لم أر في حياتي قط مثل تلك المشية أو الحركات الغريبة التي اتسم بها أثناء سحبه للصندوق. وتذكرت أن لا أحد من هؤلاء الرجال قد تحدث معي، مع أن معظمهم كانوا ينظرون إليّ خلسة بين الحين والآخر نظرات غريبة ومختلفة تمامًا عن التحديق الصريح لأي متوحش ساذج. أخذت أتساءل عن اللغة التي كانوا يتحدثون بها. بدوا جميعًا صموتين صمتًا لافتًا للنظر، وعندما يتحدثون تكون أصواتهم بالغة الغرابة. تُرى ما خطبهم؟ حينها تذكرت عيون مرافق مونتجومري الأخرق.

بينما كنت أفكر فيه إذ دخل إلى الغرفة. كان يرتدي تلك المرة ملابس بيضاء، ويحمل صينية صغيرة عليها بعض القهوة والخضراوات المسلوقة. لم أستطع أن أمنع نفسي من الانتفاض مرتعدًا عندما دخل — وهو ينحني تعبيرًا عن الود — ووضع الصينية أمامي على المائدة.

شلَّتني الدهشة عندما رأيت أذنيه اللتين تبدَّتا من تحت الخُصَل الخشنة لشعره الأسود! ظهرتا أمامي فجأة بالقرب من وجهي، فكانتا مدببتي الطرف ويغطيهما فراء بني ناعم!

قال: «إفطارك يا سيدي.» حدقت في وجهه دون أن أحاول الرد عليه. استدار، وتوجه نحو الباب وهو ينظر خلفه في اتجاهي على نحو غريب.

لاحقته بعينيّ إلى الخارج، وبينما كنت أفعل ذلك طرأت على ذهني فجأة عبارة أحدثها نشاط فكري لاشعوري بداخلي: «أهواء مورو»؟ «... مورو؟» وجدتها! أعادتني العبارة بالذاكرة عشرة أعوام إلى الوراء. إنها «أهوال مورو». لم أتذكر للحظة أين رأيت هذه العبارة، ثم أبصرتها في ذهني مكتوبة بحروف حمراء على كتيب بُنِّي فاتح كانت

قراءته تقشعر لها الأبدان وترتعد لها الفرائص. استرجعت بعد ذلك بوضوح كل ما يتعلق بتلك العبارة، وتذكرت على نحو جلي تمامًا ذلك الكتيب الذي ظل غائبًا عن ذاكرتي فترة طويلة من الزمن. كنت صبيًّا صغير السن حينها، وكان مورو — على ما أظن — يبلغ من العمر نحو خمسين عامًا. كان اختصاصيًّا بارزًا وبارعًا في علم وظائف الأعضاء، ذاع صيته في الأوساط العلمية نظرًا لخياله الفذ وصراحته اللاذعة في الحوار. هل كان ذلك الرجل هو مورو نفسه؟ لقد نشر بعض الحقائق المذهلة للغاية فيما يتعلق بنقل الدم. واشتهر أيضًا بعمله القيِّم في حالات النمو المرضي. وفجأة توقف عن عمله، ولزم عليه الرحيل عن إنجلترا. فقد تمكن أحد الصحفيين من الدخول إلى معمله بصفته مساعدًا بالأعمال المعملية، عاقدًا العزم على فضح أمور مثيرة. وبفضل حادث مروع — هذا إن كان حادثًا في الأساس — اشتهر كتيبه البشع. وفي يوم نشره فر كلب بائس مسلوخ ومشوه من منزل مورو.

وقع ذلك في موسم الأخبار الصحفية العبثية، وناشد محرر بارز كانت تربطه صلة قرابة بمساعد المعمل المؤقت، ضمير الأمة. لم تكن تلك المرة الأولى التي ينقلب فيها الضمير على أساليب البحث، فطُرِد دكتور مورو من البلاد شر طردة. ربما يكون قد استحق ذلك، لكنني لا أزال أرى الدعم الضعيف له من زملائه الباحثين، وتخلي أغلب العاملين في المجال العلمي عنه، أمرًا مخزيًا. لكن بعض تجاربه — وفقًا لرواية الصحفي — كانت بالغة الوحشية. ربما كان بوسعه الحصول على راحته داخل المجتمع عن طريق التخلي عن أبحاثه، لكن من الجلي أنه آثر الخيار الثاني، شأنه في ذلك شأن معظم الرجال الذين وقعوا تحت تأثير السحر الخلاب لعالم البحث. كان أعزب، ولم يكن يشغل باله بالتأكيد سوى اهتماماته الخاصة …

كنت مقتنعًا أن هذا الشخص هو نفسه ذلك الرجل، فكل الدلائل تشير إلى ذلك. وصار واضحًا لي مصير أنثى الكوجر والحيوانات الأخرى التي أُحضرت مع غيرها من المتاع إلى داخل المنطقة المسيجة خلف المنزل. شعرت فجأة أنني أشم رائحة غريبة غير واضحة؛ رائحة شيء مألوف ظلت في خلفية وعيي حتى تلك اللحظة. كانت رائحة تعقيم غرف العمليات. سمعت زمجرة أنثى الكوجر عبر الحائط، ونباح أحد الكلاب كما لو أنه تلقى ضربة.

لكن من المؤكد — خاصةً لرجل علم آخر — أنه ليس هناك ما يُفزع في تشريح الحيوانات الحية بما يبرر تلك السرية. وبانتقال مفاجئ غريب في أفكاري عادت تتجلى

أمامي بوضوح شديد صورة أُذنَي مرافق مونتجومري مدببتي الطرف وعينيه اللامعتين. نظرت أمامي محدقًا في البحر بمياهه الخضراء، وقد كساه الزبد تحت النسيم العليل، وأخذت تلك الأفكار وغيرها من الذكريات الغريبة للأيام القليلة الماضية تتلاحق سريعًا في ذهني.

ما الذي يعنيه ذلك؟ منطقة مسيجة مغلقة على جزيرة نائية، ومشرِّح حيوانات حية سيئ السمعة، وهؤلاء الرجال العُرجان المشوهون؟ …

الفصل الثامن

أنين أنثى الكوجر

قاطع مونتجومري تشوش أفكاري الحائرة وشكوكي حول نفسي، وتبعه مرافقه الغريب حاملًا صينية عليها خبز، وبعض الأعشاب وغيرها من المأكولات الأخرى، وزجاجة ويسكي، وإبريق ماء، وثلاثة أكواب وسكاكين. نظرت شزرًا إلى ذلك الكائن الغريب، ووجدته ينظر إليّ بعينيه المريبتين المضطربتين. قال مونتجومري إنه سيتناول وجبة الغداء بصحبتي، لكن مورو مشغول للغاية بعمله ولذا لن يتمكن من الانضمام إلينا.

قلت: «مورو! أعرف ذلك الاسم.»

فرد: «حقًّا! كم أنا أحمق لذكره أمامك. كان يجدر بي التفكير أولًا. على أي حال، سيمنحك ذلك لمحة حول ما يحيط بنا من ألغاز. أترغب في بعض الويسكي؟»

– «لا شكرًا؛ فأنا ممتنع عن الشراب.»

– «ليتني كنت كذلك، لكن ما من جدوى الآن. كان ذلك الشراب اللعين السبب في مجيئي إلى هنا؛ الشراب وليلة غائمة. ظننت أنني سعيد الحظ عندما عرض عليّ مورو الرحيل معه. إنه لغريب ...»

قاطعته فجأة عند انغلاق الباب الخارجي: «مونتجومري، لماذا يملك رجُلك أذنين مدببتي الطرف؟»

رد مع تناوله أول لقمة من الطعام: «اللعنة!» وحدقَّ فيّ لحظة، ثم كرر العبارة: «أذنان مدببتا الطرف؟»

قلت — بأكبر قدر ممكن من الهدوء — مع حبس أنفاسي: «نعم، مدببتان قليلًا، ويغطي حوافهما فراء أسود ناعم.»

مد يده لأخذ الويسكي والماء بتأنٍّ شديد، وقال: «ظننت ... أن شعره يغطي أذنيه.»

– «رأيتهما عندما انحنى أمامي لوضع القهوة التي أرسلتها إليّ على المائدة. وعيناه أيضًا تلمعان في الظلام.»

كان مونتجومري في ذلك الوقت قد أفاق من صدمة السؤال الذي طرحته، فقال بتروٍّ وتجلٍّ واضح للَّثغة البسيطة التي كان يعانيها: «طالما ظننت أن هناك ما يميز أذنيه. ومن الطريقة التي كان يغطيهما بها ... كيف كان شكلهما؟»

كنت مقتنعًا من أسلوبه أنه يدَّعي الجهل، لكن كان يصعب عليّ حينها إخباره بظني أنه كاذب. قلت: «كانتا مدببتي الطرف، صغيرتين إلى حد ما، ويكسوهما الفراء على نحو واضح. والرجل بوجه عام أحد أكثر المخلوقات التي رأيتها في حياتي غرابةً.»

دوى في تلك اللحظة صوت حاد أجش لحيوان يتألم من المنطقة المسيجة خلفنا. ودلَّ عمق الصوت وجهارته على أنه صادر من أنثى الكوجر. لاحظت المفاجأة على وجه مونتجومري.

قال: «نعم؟»

– «أين التقيت بهذا الكائن؟»

«... سان فرانسيسكو. أُقر بأنه همجي قبيح، وأبله أيضًا. لا أتذكر من أين جاء، لكنني اعتدت عليه. كلانا اعتاد على الآخر. أخبرني ما يصدمك بشأنه؟»

أجبته: «إنه غير طبيعي، ثمة خطب ما به ... لا تحسبني متوهمًا، لكنه يصيبني بشعور منفر وانقباض في عضلات جسمي عند اقترابه مني. إنها لمسة شيطانية في واقع الأمر.»

كان مونتجومري قد توقف عن الأكل أثناء إخباري له ذلك. قال: «عجبًا! فأنا لا أرى ذلك.»

عاد لتناول الطعام، وقال: «ليست لدي أي فكرة عن ذلك. شعر طاقم المركب الشراعي بالشعور نفسه بالتأكيد ... وشنوا على ذلك اللعين هجومًا مدبَّرًا ... لقد رأيت الرُّبان، أليس كذلك؟»

فجأة عَوَت أنثى الكوجر ثانيةً، لكن هذه المرة كانت أكثر تألُّمًا. تلفظ مونتجومري بسباب كاد يكون غير مسموع. كنت أفكر جديًّا في مهاجمته بشأن الرجال الذين رأيتهم على الشاطئ. أطلق حينذاك الحيوان البائس سلسلة من الصرخات القصيرة الحادة.

قلت: «رجالك الموجودون على الشاطئ، لأي عِرق ينتمون؟»

رد بذهن شارد، وقد عقد حاجبيه عند صياح الحيوان صياحًا حادًّا: «إنهم رائعون، أليس كذلك؟» لم أنطق بعد ذلك. ودوت صرخة أخرى أسوأ مما سبقتها. نظر إليّ

بعينيه الضجرتين الرماديتين، ثم تناول جرعة أخرى من الويسكي. حاول استقطابي إلى مناقشة حول الخمر، موضحًا أنه أنقذ حياتي بها. بدا مهتمًّا بالتأكيد على حقيقة أنني أدين له بحياتي. رددت عليه بذهن شارد. كنا قد انتهينا آنذاك من تناول الطعام، فنظَّف المسخ المشوه ذو الأذنين مدببتي الطرف المائدة، وتركني مونتجومري وحدي في الغرفة ثانيةً. كان متكدرًا طوال الوقت على نحو عجز عن إخفائه من صوت أنثى الكوجر التي تخضع للتشريح وهي حيّة. كان قد أخبرني أنه يفتقر للقدرة على التحكم في أعصابه، وتركني ألاحظ ذلك عمليًّا.

اكتشفت بنفسي كم كانت الصرخات مزعجة على نحو فريد، وقد ازدادت عمقًا وحدة بانقضاء فترة ما بعد الظهيرة. كانت موجعة في بادئ الأمر، لكن معاودة دويها المستمر أفقدني توازني في نهاية الأمر تمامًا، فطرحت جانبًا ترجمة كنت أقرؤها لشعر هوراس، وأخذت أمسك بقبضتيّ بإحكام، وأعض شفتي، وأذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

ثم سددت أذني بأصابعي.

أخذت الاستغاثة العاطفية التي انطوت عليها تلك الصرخات تتملك مني شيئًا فشيئًا إلى أن صارت في النهاية تعبيرًا شديد القوة عن المعاناة، فلم يعد باستطاعتي تحملها أكثر من ذلك في تلك الغرفة الخانقة. خرجت من الباب في الجو الحار الباعث على النعاس الذي اتسمت به فترة نهاية ما بعد الظهيرة، سرت بجانب المدخل الرئيسي — الذي لاحظت إقفاله ثانيةً — لأنعطف عند زاوية الجدار.

كان صوت الصراخ أعلى خارج الأبواب. وبدا كما لو كان يعبر عن كل الألم الموجود على هذه الأرض. يُخَيل إليَّ أني لو كنت أعلم أن ذلك الألم يوجد بالغرفة المجاورة دون أن يصدر عنه صوت، لكنت تحملته إلى حد كبير. فالمرء يؤرقه الشعور بالشفقة عندما يكون للمعاناة صوت يعبر عنها وعندما تثير أعصابنا. وبالرغم من أشعة الشمس المبهرة، وأغصان الأشجار المروحية الخضراء التي كانت تخفق في نسيم البحر الباعث على السكينة، فالعالم من حولي كان مضطربًا ومغبَّشًا بخيالات سوداء وحمراء، إلى أن ابتعدت عن مدى سماع ما يحدث في المنزل داخل المنطقة المسيجة.

الفصل التاسع

شيءٌ في الغابة

سِرت بخطى واسعة عبر الشجيرات التي كانت تكسو سلسلة التلال الموجودة خلف المنزل، دون أن أكترث إلى أين أذهب، وتابعت المسير عبر ظلال تجمع كثيف لأشجار مستقيمة السيقان فيما وراء تلك التلال، فوجدت نفسي بعد قليل بطريقة ما على الجانب الآخر لهذه السلسلة، هابطًا نحو نهير يجري عبر وادٍ ضيق. توقفت وأنصتّ. كانت المسافة التي قطعتها، أو الأجمة الكثيفة الفاصلة، قد أخمدت أي صوت يمكن أن يصدر من داخل المنطقة المسيجة. كان الهواء ساكنًا. سمعت بعد ذلك حفيفًا، وظهر أمامي أرنب، فركضت فارًّا أعلى المنحدر الموجود أمامي. ترددت، وجلست على حافة المكان الظليل.

كان المكان ساحرًا، الغدير تحجبه النباتات وافرة النماء الموجودة على ضفافه، فيما عدا جزء واحد حيث لاحظت بقعة مثلثة الشكل من مائه المتلألئ. على الجانب الآخر رأيت من بين سديم ضارب إلى الزرقة كتلة متشابكة من الأشجار والنباتات المتسلقة تحت زرقة السماء الباهرة. وتبدت في أماكن متفرقة آثار بيضاء وقرمزية لتبرعم بعض النباتات الهوائية المتدلية. أخذت أتفقد ذلك المنظر بعض الوقت، ثم بدأت أفكر ثانيةً في السمات العجيبة لرفيق مونتجومري. لكن حرارة الجو حالت دون استغراقي في التفكير، فحلَّت عليّ حالة من السكينة ما بين النعاس واليقظة.

أفقت من تلك الحالة بعد فترة لا أعلم مداها على حفيف يصدر من بين النباتات الخضراء على الجانب الآخر من النهير. لم أتمكن لحظة من رؤية أي شيء سوى القمم المتحركة لنباتات السرخس والخيزران، ثم فجأة ظهر شيء ما على ضفة النهير. لم يكن بوسعي في بادئ الأمر تمييز ملامحه. طأطأ ذلك الشيء رأسه باتجاه الماء، وأخذ يشرب. لاحظت بعد ذلك أنه رجل يسير على أطرافه الأربعة كالحيوانات!

كانت ملابسه من قماش لونه ضارب إلى الزرقة، وبشرته نحاسية اللون وشعره أسود. بدا لي أن القبح الشنيع كان سمة ثابتة لسكان تلك الجزيرة. كان بوسعي سماع صوت ارتشاف شفتيه للمياه.

انحنيت للأمام لأتمكن من رؤيته جيدًا، تفككت قطعة من الحمم البركانية بجانب يدي، وانزلقت على المنحدر محدثة صوتًا خافتًا، فنظر لأعلى نظرة توحي بأنه يشعر بالذنب، والتقت عيوننا. هبَّ واقفًا على قدميه، وأخذ يمسح فمه بيديه القبيحتين، وينظر إليّ. كان طول ساقيه نصف طول جسده تقريبًا. وهكذا، ظل كلٌّ منا يحدق في الآخر في حالة من الارتباك ربما مدة دقيقة، ثم توقف لينظر خلفه مرة أو مرتين، وانسل خلسة بين الشجيرات الموجودة عن يميني، وسمعت حفيف الأوراق يخفت على بُعد حتى سكن تمامًا. كان يحدق فيِّ بإمعان بين الحين والآخر. ظللت جالسًا أحدق في الاتجاه الذي سلكه بعد أن اختفى عن نظري بفترة طويلة. وتبددت تلك السكينة التي كنت أشعر بها نتيجة النعاس.

فاجأني صوت من خلفي، وعندما استدرت فجأة رأيت ذيلًا أبيض متحركًا لأرنب اختفى صاعدًا المنحدر، فانتفضت واقفًا.

قضى ظهور هذا المخلوق المفزع شبه الحيواني فجأة على ما كنت أتمتع به من هدوء بعد الظهيرة. نظرت حولي بقدر من العصبية، وشعرت بالندم أني لست مسلحًا. فكرت بعد ذلك في أن الرجل الذي رأيته للتو كان يرتدي ملابس مصنوعة من قماش لونه ضارب إلى الزرقة، وليس عاريًا مثل المتوحشين، وحاولت إقناع نفسي بأنه في نهاية الأمر شخص مسالم، وأن الوحشية غير الواضحة لملامحه تعكس انطباعًا خاطئًا عنه.

لكنني انزعجت للغاية برؤيته. سرت نحو اليسار على طول المنحدر، مديرًا رأسي حولي ومنعمًا النظر في هذا الطريق، وذاك بين سيقان الأشجار المستقيمة. لماذا يسير رجل على أطرافه الأربعة، ويرشف الماء بشفتيه؟ سمعت في تلك اللحظة أنين أحد الحيوانات ثانيةً، واعتقدت أنها أنثى الكوجر. استدرت، وسرت في اتجاه معاكس تمامًا عن ذلك الذي يصدر منه الصوت، فأدى ذلك إلى نزولي للنهير الذي عبرته وسلكت طريقي إلى أعلى متجاوزًا الشجيرات الموجودة بعده.

أفزعتني بقعة كبيرة من اللون القرمزي الزاهي على الأرض، وعندما وصلت إليها اكتشفت أنها نوع عجيب من الفطر متفرع ومتغضن مثل حزاز الصخر المورق، لكنه يتحول إلى مادة لزجة عند لمسه. عثرت بعد ذلك بين ظلال بعض السرخس وافر النماء

على شيء كريه؛ لقد كان جسد أرنب ميت مغطى بذباب لامع، لكنه لا يزال دافئًا ورأسه مفصول عن جسده. وقفت مدهوشًا أمام منظر الدم المتناثر. في تلك البقعة كان يرقد زائر للجزيرة جرى التخلص منه!

لم تكن هناك أي آثار أخرى للعنف حوله، فبدا كما لو كان قد جُذب لأعلى فجأة وقُتل. عندما حدقت في الجسد الصغير المكسو بالفرو، أخذت أفكر في صعوبة ارتكاب تلك الفعلة. وأثناء وقوفي في ذلك المكان ازدادت حدة ذلك الخوف الغامض الذي انتابني منذ رؤيتي للوجه غير الآدمي للرجل عند النهير. وبدأت أدرك مدى جرأة تجولي بين هؤلاء الغرباء. اتخذت الأجمة من حولي صورة مختلفة في خيالي، وصارت الظلال أكثر من مجرد ظلال؛ صارت كمائن، وكل حفيف أصبح يمثل تهديدًا. وبدا الأمر كما لو كانت هناك أشياء غير مرئية تراقبني.

قررت العودة إلى المنطقة المسيجة الموجودة على الشاطئ، فابتعدت فجأة واندفعت بعنف — بل ربما باهتياج — بين الشجيرات، متلهفًا للوصول إلى مكان خالٍ من حولي ثانيةً.

توقفت في اللحظة المناسبة حتى لا أظهر في مكان مفتوح. كان المكان أرض فضاء كوَّنها الخريف، وقد بدأت نبتات صغيرة تكافح لتحتل مكانًا لها في ذلك الفضاء، ومن خلفها كان النمو الكثيف للسيقان، والنباتات المعترشة المتشابكة والفطر والورود المتناثرة تسد الطريق ثانيةً. كان أمامي ثلاثة بشريين قبيحين، جالسين القرفصاء معًا على البقايا الفطرية لشجرة ضخمة منهارة، وغير مدركين بعد لاقترابي منهم. كان من الجلي أن بينهم أنثى، والاثنان الآخران رجلان. كانوا عراة، خلا أربطة من قماش قرمزي عند الخصر، وبشرتهم ذات لون قرنفلي شاحب لم أرها في أي همجيين من قبل. كانت وجوههم ضخمة وممتلئة وبلا ذقون، وجباههم مرتدة للخلف، وعلى رءوسهم القليل من الشعر الخشن. لم يسبق لي في حياتي قط رؤية مخلوقات على هذا القدر من البشاعة.

كانوا يتبادلون الحديث، أو على الأقل كان أحد الرجلين يتحدث للاثنين الآخرين، وبلغ اهتمام ثلاثتهم بالحديث ما جعل اقترابي منهم لا يسترعي انتباههم. أخذوا يُميلون رءوسهم وأكتافهم من جانب لآخر، واتسمت كلمات المتحدث بالغلظة وعدم الوضوح، وبالرغم من تمكني من الاستماع إليهم بوضوح، فما كان بوسعي تبيُّن ما كان يقوله ذلك الرجل. بدا لي أنه يلقي ببعض الكلام المبهم المعقد. صار تلفظه بالكلام بعد ذلك أكثر وضوحًا، وهبَّ واقفًا على قدميه مع بسط يديه.

بدأ الآخران حينذاك في النطق بكلام غير مفهوم في آن واحد، وهبَّا على أقدامهما أيضًا، باسطين أيديهما ومتمايلين بجسميهما في تناغم مع إيقاع أنشودتهم. لاحظت حينها القِصر غير الطبيعي لأرجلهم وأقدامهم الهزيلة القبيحة. أخذ الثلاثة يدورون ببطء مع رفع أقدامهم ثم ضرب الأرض بها، والتلويح بأذرعهم. وظهر شيء من النغم في إنشادهم الإيقاعي، ولازمة بدت كأنها «ألولا» أو «بالولا». بدأت أعينهم تبرق، وأوجههم القبيحة يعلوها تعبير من المتعة الغريبة، واللعاب يسيل من أفواههم عديمة الشفاه.

وبينما كنت أشاهد حركاتهم الغريبة وغير القابلة للتفسير، فجأة أدركت بوضوح للمرة الأولى ما أزعجني بشأنهم، وما خلَّف لدي انطباعين متناقضين ومتعارضين من الغرابة المطلقة والألفة الغريبة للغاية في الوقت نفسه. فقد اتسمت المخلوقات الثلاثة — التي انهمكت في ذلك الطقس — بهيئة بشرية، لكن سيماهم كانت توحي على نحو شديد الغرابة بسمات حيوان مألوف. امتزج كل كائن من تلك الكائنات — بالرغم من هيئتها البشرية، والأسمال البالية التي تغطي أجسامها، والخصائص البشرية لبنيتها الجسمانية — في داخله وفي تحركاته وتعبيرات وجهه وحضوره بوجه عام بطابع خنزيري لا يقاوَم، وبتشابه مع الحيوانات لا يمكن لأحد أن يخطئه.

وقفت مصعوقًا بذلك الإدراك المذهل، ثم أخذتْ أكثر الأسئلة بشاعةً تتوارد سريعًا على ذهني. بدأت المخلوقات الثلاثة في القفز في الهواء، واحدًا تلو الآخر، وهم يصيحون وينخرون. انزلق بعد ذلك أحدهم، فوقف للحظة على أطرافه الأربعة، ثم استعاد وضعه منتصبًا في الحال. لكن اللمحة الوامضة العابرة للطبيعة الحيوانية الحقيقية لهؤلاء الوحوش كانت كافية.

استدرت باذلًا أقصى جهدي لئلا أصدر صوتًا، واندفعت إلى الوراء وسط الأحراش، وجسمي يتخشب بين الحين والآخر من جراء الخوف من أن يُكشف أمري عند انكسار فرع أو صدور حفيف من إحدى الأوراق. ولم أجرؤ على التحرك بحرية إلا بعد فترة طويلة.

الفكرة الوحيدة التي سيطرت على ذهني آنذاك هي الابتعاد عن تلك المخلوقات الكريهة؛ كدت لا ألاحظ وصولي إلى طريق غير واضح بين الأشجار. وعند عبوري فجأة لأرض فضاء صغيرة، أفجعتني ملاحظة ساقين قبيحتين بين الأشجار تسيران بموازاتي دون أن تصدرا أي صوت، على بُعد نحو ثلاثين مترًا مني. أخفت مجموعة متشابكة من النباتات المتسلقة الرأس والجزء العلوي من الجسم. توقفت فجأة آملًا ألا يراني ذلك

المخلوق، فتوقفت القدمان عند توقفي. وصلت حينها إلى درجة من العصبية جعلتي أسيطر بصعوبة شديدة على رغبتي في الفرار في الحال.

تبينت بعد ذلك عند النظر بإمعان عبر شبكة الأغصان المتداخلة رأس المخلوق الذي رأيته يشرب من قبل، وجسمه. حرك رأسه، وومضت عيناه بلون أخضر زمردي عند تحديقه فيّ من بين ظلال الأشجار؛ كان لونًا شبه براق تلاشى عندما أدار رأسه ثانية. لم يحرك ساكنًا للحظة، ثم بدأ في الركض دون أن يصدر صوتًا بين النباتات المتشابكة. وفي غضون لحظة أخرى كان قد اختفى بين بعض الأحراش. لم أستطع رؤيته، لكنني شعرت أنه توقف، وأخذ يراقبني ثانيةً.

ما هذا الشيء، أهو رجل أم حيوان؟ ماذا أراد مني؟ ليس معي سلاح، ولو عصا. كان الفرار بمنزلة جنون آنذاك. على أي حال، كان ذلك «الشيء» — أيًّا كانت ماهيته — يفتقر إلى الشجاعة اللازمة لمهاجمتي. سرت نحوه مباشرة، والعزم قد ارتسم على وجهي. حاولت جاهدًا ألا أُظهر الخوف الذي اقشعر له بدني. اندفعت عبر مجموعة متشابكة من أجمة طويلة ذات زهور بيضاء، فرأيته على بعد عشرين مترًا ينظر وراءه باتجاهي مترددًا. تقدمت خطوة أو اثنتين للأمام محدقًا بثبات في عينيه.

قلت: «من أنت؟» فحاول أن ينظر إليّ في المقابل.

قال فجأة: «لا!» ثم استدار، وأخذ يقفز مبتعدًا عني بين الشجيرات. استدار بعد ذلك، وحدق فيّ ثانيةً. لمعت عيناه على نحو براق وسط الظلام أسفل الأشجار.

كنت أرتجف خوفًا، لكنني شعرت أن فرصتي الوحيدة قد تبدت أمامي، فسرت بخطى ثابتة نحوه. واستدار هو ثانية، واختفى في الظلام. مرة أخرى اعتقدت أنني رأيت وميضًا في عينيه، وانتهى الأمر عند ذلك الحد.

أدركت للمرة الأولى كيف يمكن لتأخر الوقت أن يؤثر علي. كانت الشمس قد غربت آنذاك منذ بضع دقائق، والغسق الاستوائي السريع بدأ يخبو في السماء الشرقية. أخذت فكرة رئيسية تراودني في هدوء، وهي أنه يجب عليّ الإسراع عائدًا إلى المنطقة المسيجة، إذا لم أكن أرغب في قضاء الليل بين المخاطر المبهمة لتلك الغابة الغامضة.

كانت فكرة الرجوع إلى ذلك المأوى الذي يعج بالآلام مقيتة للغاية، لكن فكرة أن يباغتني الظلام، وما يمكن أن يخفيه، في ذلك الخلاء كانت أكثر مقتًا. ألقيت نظرة أخرى على الظلال الزرقاء التي اختفى بينها ذلك المخلوق الغريب، ثم عدت أدراجي بنزولي المنحدر متجهًا نحو النهير، لأرجع — حسب تقديري — من حيث أتيت.

جدَدْت في السير متحيرًا من كل تلك الأمور، وسرعان ما وجدت نفسي في مكان مستوٍ بين مجموعة من الأشجار المتناثرة. كان الصفاء عديم الألوان الذي تلا توهج الغروب قاتمًا. أخذت ظلمة السماء الزرقاء تشتد كل لحظة، والنجوم الصغيرة تظهر واحدة تلو الأخرى في الضوء الآخذ في الخفوت. أما المسافات بين الأشجار، والفُرج بين النباتات الأخرى، التي كانت تتمتع بلون أزرق ضبابي في ضوء النهار، فصارت سوداء وغامضة.

تابعت المسير وقد اختفت الألوان من حولي. بدت قمم الأشجار في السماء الزرقاء المضيئة كظلال حالكة السواد، في حين انصهر كل شيء أسفل ذلك الحد في ظلمة عديمة الشكل. صارت الأشجار آنذاك أقل عددًا، والشجيرات الكثيفة أكثر وفرة. كانت هناك بعد ذلك مساحة مقفرة تغطيها الرمال البيضاء، ثم رقعة فسيحة أخرى من الأجمة المتشابكة.

عذبني حفيف خافت يصدر عن يميني. ظننت في بادئ الأمر أنه من نسج خيالي، فكنت كلما أتوقف، يسود الصمت فيما عدا نسيم المساء عند قمم الأشجار. وعندما واصلت السير، كان هناك صدى صوت لوقع أقدامي.

ابتعدت عن الأجمة، ملتزمًا بالمسير في المناطق المكشوفة على نحو أكبر، ومحاولًا بين الحين والآخر مباغتة ذلك الشيء فجأة — هذا إن كان موجودًا — وهو يتسلل خلسة خلفي. لم أر شيئًا لكن شعوري بكيان آخر حولي أخذ يزداد. أسرعت في خطاي، ووصلت بعد بعض الوقت إلى سلسلة تلال غير مرتفعة، عبرتها واستدرت بحدة ناظرًا إليها بثبات من الجانب الآخر. بدت سوداء اللون واضحة المعالم في السماء المظلمة.

أخذ آنذاك نتوء عديم الشكل يتبدى كل لحظة في الأفق، ثم اختفى ثانيةً. وأيقنت في ذلك الوقت أن غريمي ذا البشرة السمراء كان يطاردني خلسة من جديد. وصاحب ذلك إدراك آخر مزعج، وهو أنني قد ضللت الطريق.

أخذت أُسرع بعض الوقت متحيرًا في يأس، ومُلاحَقًا من ذلك الكائن المختلس. أيًّا كان ذلك الشيء، فقد افتقر للشجاعة اللازمة لمهاجمتي أو كان ينتظر الفرصة لمباغتتي في لحظة ضعف من جانبي. التزمت بالسير في أماكن مكشوفة. وفي بعض الأحيان كنت أستدير وأنصت، وأقنعت نفسي حينذاك إلى حد ما أن متعقبي قد توقف عن ملاحقتي، أو أنه لم يكن سوى نتاج خيالي المضطرب فحسب. سمعت بعد ذلك صوت البحر، أسرعت في خطاي إلى حد وصل إلى الركض، وسمعت على الفور خطوات متعثرة من خلفي.

استدرت فجأة، وحدقت في الأشجار التي يغلفها الغموض ورائي. وبدت الظلال السوداء بعضها يلاحق بعضًا. أنصتُّ متخشبًا من الخوف، فلم أسمع شيئًا سوى جريان

الدم في أذني. وظننت أن أعصابي كانت متوترة، وخيالي يخدعني، فاستدرت بعزم نحو صوت البحر ثانيةً.

وفي غضون دقيقة أو نحو ذلك صارت الأشجار أقل عددًا، ووصلت إلى لسان منخفض أجرد من الأرض يمتد في المياه المظلمة. كانت ليلة هادئة صافية، يتلألأ فيها انعكاس ضوء النجوم المتزايدة في العدد على أمواج البحر الهادئة. وتألق من بعيد تلاطم الأمواج على مجموعة غير منتظمة من الشعب المرجانية بضوء باهت. رأيت غربًا امتزاج الضوء البروجي مع البريق الأصفر لكوكب الزهرة. ابتعدت عن الشاطئ الموجود شرقًا، الذي كان يغطيه من ناحية الغرب جانب اللسان. تذكرت حينذاك أن شاطئ مورو كان يقع ناحية الغرب.

انكسر أحد الأغصان خلفي، وأصدر حفيفًا. استدرت، ووقفت مواجهًا الأشجار المظلمة. لم أر شيئًا، أو بالأحرى رأيت الكثير. كان كل شكل مظلم في تلك العتمة ينذر بالسوء، ويدعو للاحتراس واليقظة. لذا وقفت نحو دقيقة، ثم استدرت ناحية الغرب لأعبر اللسان، ولا يزال نظري موجهًا ناحية الأشجار. وأثناء سيري تحرك أحد الظلال المتربصة بي ليتبعني.

تسارعت ضربات قلبي. صار آنذاك امتداد الخليج الشاسع ناحية الغرب واضحًا لي. توقفت ثانيةً، وتوقف الظل — الذي لا يصدر أي صوت — على بعد عشرات الأمتار مني. سطعت بقعة ضوء صغيرة على المنعطف البعيد للمنحنى، وبدا الامتداد الرمادي للشاطئ الرملي خافتًا تحت ضوء النجوم. ربما بعدت تلك البقعة الضوئية الصغيرة ميلين. ولكي أصل إلى الشاطئ كان يلزم علي المرور عبر الأشجار التي تسللت فيها الظلال، ثم النزول على منحدر كثيف الأشجار.

صار بإمكاني حينذاك رؤية ذلك الشيء على نحو أكثر وضوحًا. لم يكن حيوانًا، فقد وقف منتصبًا. فتحت فمي عندئذٍ لأتكلم، لكن انحبس صوتي. حاولت ثانيةً، وصحت: «من هناك؟» لكن لم يُجب أحد. تقدمت خطوة للأمام. ولم يتحرك ذلك الشيء؛ لكن ضم جسمه فقط. اصطدمت عندئذٍ قدمي بإحدى الصخور.

أوحى لي ذلك بفكرة. ودون أن أرفع بصري عن الشكل الأسود الموجود أمامي، انحنيت لألتقط تلك الصخرة. لكن عند تحركي استدار ذلك الشيء بغتة كما الكلب، وانسل خلسة في مسار متعرج بعيدًا في الظلام. تذكرت حينئذٍ حيلة كان يتبعها تلاميذ المدارس مع الكلاب الضخمة، فلففت الصخرة في منديلي، ولوحت بها نحوه. سمعت بعد

ذلك صوت حركة بعيدًا بين الظلال كما لو كان ذلك الشيء يتراجع، ثم انهرت نتيجة للانفعال الشديد، وتعرق جسمي على نحو مفرط وسقطت مرتجفًا، فقد هزمت غريمي، وأنا ممسك بذلك السلاح في يدي.

لم أتمكن من استجماع شجاعتي لاتخاذ قرار بالنزول عبر الأشجار والشجيرات على جانب اللسان وصولًا إلى الشاطئ إلا بعد بعض الوقت. وفي النهاية، فعلت ذلك سريعًا، وعندما خرجت من بين الأجمة لأصل إلى الرمال سمعت صوت جسم آخر يأتي مسرعًا خلفي.

عندئذٍ أفقدني الخوف صوابي تمامًا، وبدأت أركض على الرمال. سمعت في الحال وقعًا سريعًا لأقدام رشيقة تلاحقني. صرخت فزعًا، وضاعفت سرعتي. أخذت أشياء ذات لون أسود باهت وحجم يصل إلى ثلاث أو أربع مرات حجم الأرانب تجري وتقفز على الشاطئ متجهة نحو الشجيرات عند مروري بها. سيظل الرعب الذي انطوت عليه تلك المطاردة عالقًا في ذهني ما حييت. ركضت بالقرب من حافة المياه، وسمعت بين الحين والآخر ترشاش المياه الناتج عن وقع الأقدام التي كانت تقترب مني. بعيدًا … بعيدًا على نحو يبعث على اليأس، كان هناك ضوء أصفر، والليل من حولي يغلفه السواد والسكون. أوحى صوت ترشاش المياه المتلاحق باقتراب الأقدام التي تطاردني أكثر وأكثر. شعرت بانقطاع في أنفاسي، فقد كنت أفتقر تمامًا إلى لياقتي البدنية؛ أخذت أشهق وشعرت بألم يشبه وخز السكاكين في جانبي. وقد أدركت أن ذلك الشيء سيدركني قبل أن أصل إلى المنطقة المسيجة بوقت طويل، كان اليأس قد بلغ مني مبلغه، وأخذت أنشج محاولًا التقاط أنفاسي؛ واستدرت نحوه لأضربه عند وصوله إليّ. ضربته بكل قوتي، فخرجت الصخرة من المنديل عند قيامي بذلك.

عندما استدرت هبَّ ذلك الشيء — الذي كان يجري على أطرافه الأربعة — على قدميه، وأصابت الصخرة صدغه الأيسر. دوى صوت جمجمته عاليًا، وأخذ ذلك الرجل الحيوان يتخبط في خطاه باتجاهي، دفعني للخلف بيديه، ثم ترنح بجانبي ليسقط برأسه على الرمال ووجهه في الماء. وظل هناك بلا حراك.

لم أستطع الاقتراب من ذلك الشيء الأسود الُمكوَّم أرضًا، فتركته هناك، والمياه تترقرق من حوله تحت النجوم الساكنة. وبعد أن ابتعدت عنه بمسافة كافية، واصلت المسير نحو الضوء الأصفر المنبعث من المنزل. وصدر — في تلك اللحظات ما كان له أثر إيجابي يبعث على الارتياح — أنين أنثى الكوجر المثير للشفقة، وهو الصوت الذي دفعني في

الأصل للابتعاد عن ذلك المكان مستكشفًا تلك الجزيرة الغامضة. عندئذٍ، وبالرغم من شعوري بالوهن والإعياء الشديد، استجمعت كل ما أوتيت من قوة، وبدأت في الركض نحو الضوء. بدا الأمر كما لو أن صوتًا يناديني.

الفصل العاشر

صرخة بشرية

عند اقترابي من المنزل لاحظت أن الضوء كان ينبعث من الباب المفتوح لغرفتي. سمعت بعد ذلك صوت مونتجومري وهو يصيح: «بريناديك!» في الظلام الذي خيم على جانب ذلك المستطيل البرتقالي.

واصلت الركض، وسمعته ثانيةً، فأجبته على وهن: «مونتجومري!» وفي غضون لحظات كنت قد وصلت إليه مترنحًا.

أمسك بي من بُعد، فانعكس الضوء المنبعث من الباب على وجهي، وقال: «أين كنت؟ لقد انشغل كلانا للغاية، فغفلنا عنك ولم نتذكرك إلا من نصف ساعة مضت.»

قادني إلى داخل الغرفة، وأجلسني على الكرسي المريح القابل للطي. أعماني الضوء بعض الوقت. قال مونتجومري: «لم نظن أنك ستبدأ في استكشاف جزيرتنا دون إعلامنا»، ثم أضاف: «لقد كنت خائفًا! لكن ... ماذا ... بريناديك!»

خار ما تبقى لديّ من قوة، فسقط رأسي على صدري. وأعتقد أنه شعر بنوع من الرضا في إعطائي البراندي. قلت له: «بالله عليك! أغلق ذلك الباب!»

قال: «لقد التقيت ببعض غرائبنا، أليس كذلك؟» ثم أغلق الباب واستدار ناحيتي ثانيةً. لم يطرح عليّ أي أسئلة، لكنه أعطاني المزيد من البراندي والماء، وألح عليّ لتناول الطعام. كنت في حالة انهيار. تلفظ مونتجومري بشيء مبهم عن نسيانه تحذيري، وسألني باختصار عن الوقت الذي غادرت فيه المنزل، وما رأيته. وأجبته بالاختصار نفسه في جُمل غير مكتملة. قلت وأنا في حالة شبه هيسترية: «أخبرني ما الذي يعنيه كل ذلك؟»

أجاب: «ليس الأمر على هذا القدر من البشاعة، لكن أعتقد أنك قد نلت كفايتك ليوم واحد.» أصدرت أنثى الكوجر صرخة ألم حادة، فأخذ مونتجومري يتلفظ بالسباب هامسًا، ثم قال: «اللعنة! هذا المكان أسوأ من شارع «جاور» وما يعج به من قطط.»

قلت: «ما ذلك الشيء الذي تتبعني، يا مونتجومري؟ أكان حيوانًا أم إنسانًا؟»

وكان رده: «إذا لم تنم الليلة، فستُجَن بحلول الغد.»

وقفت في مواجهته، وسألته: «ما ذلك الشيء الذي تتبعني؟»

نظر إليّ مباشرة في عيني، ولوى فمه بازدراء. بدا الفتور في عينيه اللتين كانتا تنبضان بالحياة منذ دقيقة واحدة، وقال: «وفقًا لما رويته أظن أنه كان عفريتًا.»

شعرت بحنق شديد زال بالسرعة نفسها التي انتابني بها. دفعت نفسي في الكرسي ثانيةً، وضغطت بيديَّ على جبيني. شرعت أنثى الكوجر في التأوه من جديد.

جاء مونتجومري من خلفي، ووضع يده على كتفي، ثم قال: «اسمع يا بريនديك! ليس لي ذنب في خروجك إلى هذه الجزيرة السخيفة. لكن الأمر ليس على ذلك القدر من السوء الذي تشعر به يا رجل. أعصابك منهارة، وسأعطيك شيئًا يساعدك على النوم. سيستمر ذلك ... عدة ساعات. لذا، يجب أن تنام، وإلا فلن أكون مسئولًا عن العواقب.»

لم أرد عليه. انحنيت للأمام، وغطيت وجهي بيديَّ. عاد مونتجومري في الحال ومعه قدر صغير يحتوي على سائل داكن اللون. أعطاه لي، فأخذته دون مقاومة، وساعدني بعد ذلك في الوصول إلى الأرجوحة الشبكية.

استيقظت من النوم في وضح النهار. ظللت مستلقيًا بعض الوقت، محدقًا في السقف فوقي. فلاحظت أن العوارض الخشبية بالسقف كانت مصنوعة من ألواح إحدى السفن. أدرت بعد ذلك رأسي، ورأيت وجبة مُعدة من أجلي على المائدة. أدركت حينها أنني جوعان، واستعددت للنزول عن الأرجوحة التي بدت كأنها توقعت ما أنوي فعله، فالتفَّتْ وقذفت بي على الأرض لأسقط على أطرافي الأربعة.

نهضت وجلست أمام الطعام. كنت أشعر بألم في رأسي، ولم يكن بوسعي تذكر سوى تفاصيل مبهمة عما حدث الليلة السابقة. هب نسيم الصباح عليلًا من النافذة غير المصقولة. وأدى ذلك النسيم — بجانب الطعام — إلى شعوري بالراحة. عندئذٍ انفتح الباب الموجود خلفي، كان ذلك الباب الداخلي الذي يطل على فناء المنطقة المسيجة. استدرت، ورأيت وجه مونتجومري. قال: «هل أنت بخير؟ إنني مشغول للغاية.» ثم أغلق الباب. اكتشفت بعد ذلك أنه قد نسي أن يوصده.

تذكرت بعد ذلك تعبير وجهه الليلة الماضية، واستعدت بذلك كل ما مررت به. في اللحظة ذاتها التي عاد إليّ ذلك الشعور بالخوف، سمعت صرخة من الداخل. لكن هذه المرة لم تكن صرخة أنثى الكوجر.

أنزلت اللقمة التي ترددت في تناولها، وأخذت أُنصت. لم أسمع سوى صمت، فيما عدا همس نسيم الصباح، فبدأت أُكذب أذنيّ.

واصلت تناول الطعام بعد توقف طويل، لكن ظلت أذناي متنبهتين. عندئذٍ سمعت صوتًا آخر منخفضًا وخافتًا للغاية. جلست متخشبًا في مكاني. وبالرغم من انخفاض الصوت وخفوته، فقد خلف بداخلي أثرًا أقوى من كل ما سبق لي سماعه من أصوات بغيضة خلف الجدار. فما كان هناك مجال للشك هذه المرة في طبيعة تلك الأصوات المتقطعة الخفيضة؛ لا شك على الإطلاق في مصدرها. كانت تأوهات يتخللها نشيج ونهيج من الألم. لم يكن حيوانًا تلك المرة، بل إنسانًا يتعذب!

عندما أدركت ذلك نهضت، وقطعت الغرفة في ثلاث خطوات، أمسكت بمقبض الباب المؤدي إلى الفناء، وفتحته بقوة.

صاح مونتجومري معترضًا إياي: «بريننديك! قف!» وأخذ كلب صيد مذعور ينبح ويزمجر. لاحظت وجود دم في الحوض، كان لونه بنيًّا وبعضه أحمر قرمزي. شممت رائحة حمض الكربوليك المميزة. رأيت بعد ذلك من باب مفتوح في الخلف، في ضوء الظل الخافت، شيئًا مشدود الوثاق مضمدًا أحمر تملؤه آثار الجروح. ظهر بعد ذلك رأس مورو العجوز، وقد بدا عليه الشحوب والفزع، ليحجب ذلك المشهد عن نظري.

وفي لحظة أمسك بي من كتفي بيدٍ ملطخة باللون الأحمر، وأدار جسدي ليدفعني بعد ذلك بقوة دون توانٍ إلى غرفتي. رفعني كما لو كنت طفلًا صغيرًا، وسقط جسمي بالكامل على الأرض. صفق الباب، وحجب بذلك التوتر الشديد الذي بدا على وجهه. سمعت بعد ذلك صوت المفتاح في القفل، وصوت مونتجومري مجادلًا مورو.

سمعت مورو يقول: «لقد دمر عمل العمر كله!»

فرد مونتجومري: «إنه لا يفهم ...» وقال كلامًا آخر لم أتمكن من سماعه.

قال مورو: «لكن لا يمكنني تضييع الوقت في ذلك.»

لم أسمع باقي المحادثة. استجمعت قواي لأنهض، وقفت مرتعدًا، وعقلي مشوش تمامًا بأبشع الهواجس. أخذت أتساءل: هل يُعقل أن يكون تشريح البشر أحياءً أمرًا ممكنًا؟ خطر السؤال بذهني كبرق خاطف في سماء أفكاري العاصفة. ووصل فجأة الرعب الذي خيم على أفكاري إلى إدراك بيِّن للخطر المحدق بي.

الفصل الحادي عشر

اصطياد رجل

خطر ببالي — وأمل غير منطقي في الهرب يراودني — أن الباب الخارجي لغرفتي لا يزال مفتوحًا. لقد صرت مقتنعًا آنذاك، بل متيقنًا من أن مورو كان يشرح إنسانًا حيًّا. كنت أحاول طوال الوقت منذ سماعي اسمه أول مرة أن أربط في ذهني الطبيعة الحيوانية المفزعة لسكان الجزيرة بما يجريه من أعمال بغيضة، واعتقدت في ذلك الوقت أنني قد استوعبت الأمر برمته. وتذكرت حينها أبحاثه في مجال نقل الدم. كانت تلك الحيوانات التي رأيتها ضحايا تجربة بشعة!

كل ما كان هذان الوغدان المثيران للاشمئزاز ينويان فعله هو التحفظ عليّ، وخداعي بفكرة الثقة التي كانا يدعيانها، ومواجهتي عما قريب بمصير أكثر ترويعًا من الموت، ألا وهو التعذيب، ومن بعده أبشع صور الامتهان التي يمكن تصورها، وهي إطلاق سراحي كروح ضالة، كحيوان، لأهيم على وجهي كباقي البحارة المُحولين إلى حيوانات. نظرت حولي بحثًا عن سلاح، فلم أعثر على شيء، ثم بإلهام ما قلبت الكرسي القابل للطي، ووضعت قدمي على جانبه، ونزعت حاجزه الجانبي. تصادف خروج مسمار في الخشب المنزوع، مما أعطى ذلك السلاح البسيط مظهرًا يوحي بالخطر. سمعت وقع أقدام بالخارج، ففتحت الباب بعنف بالغ، ووجدت مونتجومري على بعد متر واحد منه. كان يعتزم قفل الباب الخارجي.

رفعت تلك العصا المزودة بمسمار، وصوبتها نحو وجهه، لكنه ارتد للخلف. ترددت لحظة، ثم استدرت وفررت بتجاوز زاوية المنزل، فسمعته يصيح مندهشًا: «بريnديك! يا رجل! لا تكن أحمق!»

فكرت أنه في خلال لحظات سيكون قد حبسني بالداخل، وأعدَّني لمصيري كفأر تجارب. ظهر من خلف الزاوية، وسمعته ينادي: «برينديك!» ثم بدأ يجري خلفي، ويصيح بكلام آخر أثناء ذلك.

توجهت هذه المرة، راكضًا بغير هدى، إلى الجهة الشمالية الشرقية، وهو اتجاه عمودي على الاتجاه الذي سلكته عند استكشافي للجزيرة المرة السابقة. وما إن بدأت أركض سريعًا على الشاطئ حتى لمحت مونتجومري ورفيقه من ورائي. فأخذت أجري باهتياج صاعدًا المنحدر، وواصلت المسير فوقه، ثم استدرت ناحية الشرق على طول وادٍ صخري تحفُّه الأدغال من كلا الجانبين. ركضت إجمالًا نحو ميل، وصدري يتمزق من الإجهاد، ودقات قلبي تدوي في أذني. وبعد ذلك، ونظرًا لأنني لم أعد أسمع أي صوت لمونتجومري ورجله، وشعوري بأنني على وشك الإنهاك، انعطفت فجأة ناحية الشاطئ — وفقًا لما ارتأيته آنذاك — واستلقيت في مأوى من أشجار الخيزران.

بقيت في ذلك المكان فترة طويلة من الوقت، والخوف الشديد يمنعني من التحرك، بل من التخطيط أيضًا لما سأفعله بعد ذلك. كان الصمت يخيم على المشهد البريِّ المحيط بي تحت الشمس، والصوت الوحيد الذي كنت أسمعه بالقرب مني هو الطنين الخافت لبعض البعوض صغير الحجم الذي توصل إلى مكاني. تنبهت في ذلك الوقت لصوت نسيم خافت، وكان ذلك صوت تلاطم الأمواج على الشاطئ.

بعد نحو ساعة سمعت مونتجومري يناديني من مسافة بعيدة نحو الشمال. فسرت الأمر آنذاك أن الجزيرة لم يكن يسكنها سوى هذين الاثنين العاملين بتشريح الأحياء، وضحاياهم المتحولين إلى حيوانات. وهما يمكن أن يرغما بعض هؤلاء بالتأكيد على خدمتهما في مواجهتي، إن استدعت الحاجة ذلك. كنت أعلم أن مورو ومونتجومري يحملان مسدسات، في حين كنت أنا أعزل خلا ذلك اللوح الخشبي البسيط الذي يبرز منه مسمار صغير في محاكاة ساخرة لسلاح القضيب الشائك الذي كان يستخدمه المحاربون قديمًا.

لذا، ظللت مستلقيًا بلا حراك في مكاني حتى بدأت أفكر في الطعام والشراب. وفي تلك اللحظة عاودني الشعور باليأس الجارف. لم أكن أعلم وسيلة للحصول على أي طعام؛ كنت جاهلًا بالنباتات إلى الحد الذي حال دون تمكني من اكتشاف أي جذور أو ثمار من المحتمل وجودها حولي. هذا فضلًا عن افتقاري إلى أي وسائل لاصطياد الأرانب القليلة الموجودة على الجزيرة. وكلما تفقدت المشهد أكثر صرت أكثر عجزًا عن التفكير.

وأخيرًا، في ظل اليأس الذي خيم عليَّ، انتقلت بتفكيري إلى البشر الحيوانات الذين قابلتهم. حاولت الكشف عن أي بارقة أمل فيما تذكرته بشأنهم، فأخذت أسترجعهم واحدًا تلو الآخر، محاولًا التماس المساعدة من ذاكرتي.

وفجأة سمعت نباح أحد كلاب الصيد، أدركت حينها أنني أواجه خطرًا جديدًا. لم أستغرق وقتًا طويلًا في التفكير، لأنني إن فعلت لكانوا قد أدركوني حينذاك، فالتقطت سريعًا عصاي ذات المسمار الناتئ، واندفعت مسرعًا من مكان اختبائي باتجاه صوت البحر. أتذكر وجود نباتات شائكة أخذت تطعنني مثل السكاكين الصغيرة. خرجت من بينها — وجسمي ينزف دمًا وثيابي ممزقة — على حافة منبع جدول مائي ناحية الشمال. توجهت مباشرةً نحو الأمواج دون التردد لحظة واحدة، وخضت مياه الجدول حتى وجدت نفسي وسط نهير والماء يصل إلى ركبتيَّ. وفي النهاية دفعت نفسي على الضفة الغربية للنهير، وزحفت ودقات قلبي تدوي عاليًا في أذنيّ، نحو مجموعة متشابكة من أشجار السرخس لأترقب الوضع، فسمعت الكلب — كان واحدًا فحسب — يقترب، وأخذ ينبح عند وصوله إلى الأشواك. لم أسمع شيئًا بعد ذلك، وبدأت أظن حينها أنني قد تمكنت من الهرب.

مرت الدقائق، ودام الصمت طويلًا، وأخيرًا بعد ساعة من الأمان بدأت أستعيد شجاعتي.

بحلول ذلك الوقت لم أعد مذعورًا أو بائسًا، إذ كنت قد تجاوزت — إذا جاز التعبير — حدود الذعر واليأس. شعرت آنذاك أنني قد فقدت حياتي حقيقةً، واقتناعي مكنني من تحدي أي شيء، بل كانت لدي رغبة أيضًا في ملاقاة مورو وجهًا لوجه. وبالنظر إلى خوضي المياه في الجدول، تذكرت أنني إذا تعرضت لضغوط شديدة، فلا يزال أمامي سبيل واحد متاح للهروب من العذاب، فلن يمكنهما منعي من إغراق نفسي. لقد كدت أغرق نفسي حينها بالفعل، لكن رغبة غريبة في معرفة ما ستئول إليه تلك المغامرة، واهتمامًا عجيبًا بذاتي، منعاني من ذلك. بسطت أطرافي المتقرحة والمؤلمة بسبب وخز النباتات الشائكة، وأخذت أحدق في الأشجار من حولي. وفجأة أبصرت عيناي وجهًا أسود يراقبني، كما لو كان قد قفز من بين النباتات الخضراء المتشابكة من حولي.

تبينت بعد ذلك أنه ذلك المخلوق الشبيه بالقرود الذي كان في استقبال القارب على الشاطئ. كان متشبثًا بجذع مائل لإحدى أشجار النخيل. التقطت عصاي، ووقفت في مواجهته. بدأ يتحدث بكلمات غير واضحة كل ما تمكنت من تمييزه منها في بادئ الأمر

هو: «أنت، أنت، أنت». وفجأة قفز من فوق الشجرة، وفي خلال لحظة أخرى كان يحدق فيّ باهتمام من بين السعف.

لم أشعر تجاه ذلك المخلوق بالاشمئزاز نفسه الذي شعرت به في لقائي بغيره من البشر الحيوانات. قال: «أنت ... في القارب.» لقد كان رجلًا، فهو يستطيع الكلام؛ على الأقل بالقدر نفسه الذي يمكن لرفيق مونتجومري التحدث به.

وكان ردي: «نعم، لقد جئت في القارب من السفينة.»

قال: «آه!» وعيناه البراقتان المضطربتان تتفقداني بالكامل لتنتقلا من يديَّ إلى العصا التي كنت أحملها، إلى قدمي، إلى البقع الممزقة في معطفي، والجروح والخدوش التي خلفتها لدي الأشواك. بدا متحيرًا من شيء ما. عاد بعينيه إلى يدي، ومد يده ليعد أصابعه ببطء: «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة؛ ها؟»

لم أدرك مقصده آنذاك، لكنني اكتشفت بعد ذلك أن نسبة كبيرة من هؤلاء البشر الحيوانات كانت أيديهم مشوهة، وينقصها في بعض الأحيان ما يصل إلى ثلاثة أصابع. لكن ظني آنذاك أن ما فعله كان صورة من صور التحية دفعني لفعل الأمر نفسه ردًّا عليه، فابتسم ابتسامة عريضة تعبيرًا عن رضا شديد، ثم جال بنظرته السريعة ثانيةً. وتحرك سريعًا ثم اختفى، ليعود سعف النخيل الذي كان يقف بينه إلى وضعه مُصدِرًا حفيفًا.

اندفعت خارجًا من مأوى أشجار الخيزران خلفه، وأدهشتني رؤيته متأرجحًا بابتهاج بذراع واحدة مهزولة من أحد أغصان النباتات المتسلقة التي كانت تتدلى من أعلى. كان ظهره مواجهًا لي.

قال: «مرحبًا!»

نزل قافزًا قفزة متعرجة، ووقف مواجهًا لي. قلت له: «أين يمكنني الحصول على شيء آكله؟»

وكان رده: «تأكل! تأكل طعام البشر الآن.» وعادت عيناه إلى أرجوحة النباتات المتسلقة، ثم قال: «عند الأكواخ.»

– «لكن أين الأكواخ؟»

– «آه!»

– «أنا غريب كما تعلم.»

عندئذٍ أخذ يتأرجح، وانطلق في سيره سريعًا. كانت جميع حركاته سريعة على نحو غريب. قال: «تعال معي!» فذهبت معه لأرى نهاية تلك المغامرة. وخمنت أن تلك الأكواخ

كانت مأوى وعرًا يعيش فيه هو وغيره من البشر الحيوانات. قد يكونون ودودين، وأعثر على شيء ما في عقولهم يمكنني التشبث به، فأنا لا أعلم بعد مدى نسيانهم للتراث الإنساني الذي نسبته إليهم.

هرول رفيقي الشبيه بالقرود بجانبي، ويداه تتدليان، وفكه بارز للأمام. تساءلت عما يتمتع به من ذاكرة، فسألته: «ما المدة التي قضيتها على هذه الجزيرة؟»

فسأل: «ما المدة؟» وبعد تكرار السؤال رفع ثلاثة أصابع لأعلى. لم يكن أحمق تمامًا. حاولت الكشف عما كان يقصده بذلك، وبدوت كما لو كنت أسبب له الضجر. وبعد سؤال آخر أو اثنين غادر المكان بجانبي فجأة، ووثب لقطف ثمرة معلقة من إحدى الأشجار. نزع عنها بعض القشور المليئة بالأشواك ليتناول محتوياتها. نظرت إلى ذلك بشيء من الرضا، فكان ذلك على الأقل إشارة إلى وجود طعام. حاولت أن أطرح عليه بعض الأسئلة الأخرى، لكن إجاباته الفورية غير الواضحة كانت متناقضة في أحيان كثيرة مع الهدف من سؤالي، فكان بعضها متناسبًا، في حين كان بعضها الآخر أشبه بترديد الببغاء للكلام.

كنت مشغولًا للغاية بتلك الغرائب حتى إنني لم ألاحظ الطريق الذي سلكناه. وصلنا آنذاك إلى الأشجار، كانت جميعها محروقة وبنية اللون، ومن ثم إلى مكان خالٍ تغطيه قشرة بلون أبيض مائل للصفرة، وتتدفق فيه تيارات من الدخان المُحرِق للأنف والعين. وعلى اليمين رأيت من وراء صخرة جرداء السطح المستوي لمياه البحر الزرقاء. وصلنا فجأة إلى وادٍ ضيق بين كتلتين من صخور الجُفاء الداكنة المتكومة والمتعقدة. دخلنا من بين تلك الصخور.

خيم الظلام الدامس على ذلك الممر بعد أن كان ضوء الشمس الساطع ينعكس من الأرضية ذات اللون الأصفر الباهت. صارت الجدران شاهقة الارتفاع، وأكثر قُربًا بعضها من بعض. ومرت أمام عيني بقع خضراء وقرمزية. توقف مرشدي فجأة، وقال: «المنزل»، كنت أقف فوق أرضية صدع بدا لي في بادئ الأمر مظلمًا تمامًا. سمعت بعض الأصوات الغريبة، وحككت عينيَّ بمفاصل أصابع يدي اليسرى. شممت حينها رائحة كريهة تشبه رائحة قفص قرد سيئ التنظيف. وبعد ذلك تبدى من بين الصخور منحدر متدرج من النباتات الخضراء التي تنعكس عليها أشعة الشمس، ويسطع الضوء على جانبيه عبر قناة ضيقة وصولًا إلى مركز الظلام.

الفصل الثاني عشر

الناطقون بالقانون

شعرت بعد ذلك بشيء بارد يلمس يدي، ففزعت فزعًا شديدًا، ورأيت بالقرب مني شيئًا لونه قرنفلي باهت، بدا تمامًا كما لو كان طفلًا مسلوخ الجلد. كان ذلك المخلوق يشبه حيوان الكسلان تمامًا من ناحية الملامح الوديعة والمنفرة في الوقت نفسه، والجبهة المنخفضة، والإيماءات البطيئة. وما إن استفقت من الصدمة الأولى لتغير الإضاءة حتى تبينت المكان من حولي على نحو أكثر وضوحًا. كان الكائن الصغير الشبيه بالكسلان يقف محدقًا فيّ. أما مرشدي، فقد اختفى.

كان المكان ممرًّا ضيقًا بين جدارين عاليين من الحمم البركانية، وعلى الجانبين أكوام متشابكة من طحالب حصيرة البحر، وسعف النخيل، وأعواد الخيزران، التي كانت تميل على الصخرة، مكونة أوكارًا وعرة مظلمة منيعة. بلغ عرض السبيل المتعرج إلى أعلى بين هذين الجدارين نحو ثلاثة أمتار بالكاد، وكانت تشوِّهه كتل من لباب الفواكه المتحللة وغيرها من النفايات الأخرى التي تفسر الرائحة النتنة للمكان.

كان الكائن الصغير ذو اللون الوردي الشبيه بالكسلان لا يزال يرمقني بنظراته عندما ظهر الرجل القرد ثانيةً عند منفذ أقرب وكر من تلك الأوكار، وأشار إليّ بالدخول. وعند قيامه بذلك خرج وحش أحدب من أحد الأماكن البعيدة في ذلك الطريق الغريب، وظهر ظله بلا ملامح قبالة الضوء الأخضر الموجود خلفه، وأخذ يحدق فيّ. ترددت — وكدت أفر من حيث أتيت — ثم أمسكت بعصاي ذات المسمار الناتئ من منتصفها، عازمًا على خوض تلك المغامرة حتى النهاية، وزحفت داخل منحدر السطح الصغير كريه الرائحة خلف مرشدي.

كان مكانًا شبه دائري يشبه نصف خلية النحل، وكانت توجد كومة من الفواكه المتنوعة وثمار جوز الهند وغيرها قبالة جدرانه الصخرية الداخلية. كانت هناك أيضًا

أخشاب وأوعية قاسية على الأرضية، ووعاء واحد على كرسي غير مصقول بلا ظهر أو مسندين. ولم تكن هناك نار. وفي الجانب الأكثر ظلمة للكوخ جسم بلا ملامح يجلس في الظلام، قال صاحبه بصوت خفيض أجش: «مرحبًا!» عند دخولي. وقف الرجل القرد في الضوء الخافت عند مدخل الباب، وأنا أزحف إلى الجانب الآخر وأجلس القرفصاء ناولني ثمرة جوز هند مشقوقة، فأخذتها وبدأت أقضمها بهدوء قدر الإمكان، بالرغم من فزعي الشديد، والضيق غير المحتمل للوكر. وقف الكائن الصغير وردي اللون الشبيه بالكسلان عند منفذ الكوخ، وجاء كائن آخر له وجه أسمر وعيون براقة ليحدق من فوق كتفه.

صدر صوت من الكومة الغامضة المواجهة لي يقول: «مرحبًا!» وأخذ مرشدي يثرثر قائلًا: «إنه رجل! إنه رجل! رجل، رجل حي، مثلي.»

قال الصوت المنبعث من الظلام: «اخرس!» ثم صدر صوت خفيض أجش. أخذت أقضم ثمرة جوز الهند وسط هدوء مثير. أنعمت النظر جيدًا في السواد المحيط بي، لكنني لم أتمكن من تمييز أي شيء. كرر الصوت: «إنه رجل. هل جاء ليعيش معنا؟» كان صوتًا أجش ينطوي على شيء ما، شيء كنغمة توافقية تشبه الصفير صدمتني لغرابتها، لكن لهجته الإنجليزية كانت جيدة على نحو غريب.

نظر الرجل القرد إليَّ كما لو كان يتوقع شيئًا، فأدركت أن ذلك الصمت كان استفهاميًّا. قلت: «لقد جاء ليعيش معكم.»

– «إنه رجل. لا بد أن يتعلم القانون.»

بدأت أميز آنذاك سوادًا داكنًا وسط الظلام، كان مُخططًا مبهمًا لجسم أحدب. ولاحظت بعد ذلك ظلين لرأسين آخرين في مدخل المكان، فأحكمت قبضتي على عصاي. كرر الشيء القابع في الظلام بصوت أعلى: «قل هذه الكلمات»، كانت قد فاتتني ملاحظته الأخيرة. كرر بنغم رتيب: «محظور السير على أربع؛ هذا هو القانون.»

أصابني الارتباك، وقال الرجل القرد مكررًا: «قل هذه الكلمات»، وردد الكائنان الموجودان عند المدخل ذلك بشيء من التهديد في صوتهما. أدركت أنه يجب عليّ تكرار هذه العبارة السخيفة. وبدأت بعد ذلك أكثر الطقوس جنونًا. أخذ الصوت الصادر من الظلام يرنم ترنيمة مجنونة، سطرًا تلو الآخر، وأنا والآخرون نردد وراءه. وأثناء ذلك كانوا يتمايلون من جانب آخر، ويضربون بأيديهم على ركبهم، ففعلت مثلهم. تخيلت أنني توفيت وانتقلت إلى عالم آخر. كان ذلك الكوخ المظلم والكائنات المبهمة الكريهة التي كانت تظهر هنا وهناك عندما يومض الضوء عليها، تتمايل جميعها في تناغم، وهي ترنم:

«محظور السير على أربع؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»
«محظور امتصاص المشروبات بالفم؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»
«محظور تناول اللحم أو السمك؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»
«محظور تمزيق لحاء الأشجار بالمخالب؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»
«محظور ملاحقة البشر الآخرين؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»

انتقلوا بعد ذلك من حظر تلك الأفعال الحمقاء إلى حظر ما رأيته حينذاك أكثر الأمور التي يمكن تصورها جنونًا واستحالة وبذاءةً. أُصبنا جميعًا بشيء من الحماس المرتبط بالإيقاع؛ فأخذنا نثرثر ونتمايل أسرع وأسرع، مرددين ذلك القانون المذهل. ظاهريًّا انتقلت العدوى من هؤلاء المتوحشين إليّ، لكن كان في أعماقي صراع بين الضحك والشعور بالاشمئزاز. أخذنا نردد قائمة طويلة من المحظورات، ثم تحولت الأغنية إلى وتيرة جديدة:

«داره هي دار الألم.»
«يده هي اليد التي تصنع.»
«يده هي اليد التي تجرح.»
«يده هي اليد التي تداوي.»

استمروا على هذا الحال مرددين سلسلة طويلة من تلك العبارات، التي كان أغلبها مبهمًا، وتدور «حوله»، أيًّا كان هو. كان بإمكاني التخيل أنني أحلم، لكنني لم أسمع غناءً من قبل في الحلم.

أخذنا نغني: «له وميض البرق ... له البحر المالح العميق.»

ورد على ذهني تصور رهيب بأن مورو، بعد أن حوَّل هؤلاء البشر إلى حيوانات، أدخل في عقولهم المتضائلة نوعًا من التأليه لذاته. لكن تنبهي للأسنان البيضاء والمخالب القوية المحيطة بي جعلني أتوقف عن التفكير في ذلك الأمر. «له النجوم في السماء.»

وصلت تلك الأغنية أخيرًا إلى نهايتها، ولاحظت وجه الرجل القرد يتصبب عرقًا، وتبينت أيضًا على نحو أكثر تحديدًا الجسم الموجود بالزاوية التي يصدر منها الصوت، فقد اعتادت عيناي الآن على الظلام. كان حجمه حجم رجل، لكن بدا مغطى بشعر رمادي باهت. من كان ذلك؟ من كانوا هؤلاء جميعًا؟ تخيل نفسك محاطًا بأبشع صور

المعاقين والمخبولين، وسوف تدرك شيئًا مما كنت أشعر به مع هذه الصور الإنسانية المشوهة الكريهة المحيطة بي.

قال الرجل القرد: «إنه رجل بخمسة أصابع، رجل بخمسة أصابع، رجل بخمسة أصابع ... مثلي.»

مددت يدي للأمام، ومال المخلوق الرمادي الموجود في الزاوية للأمام، وقال: «محظور الجري على أربع؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟» ومد برثنًا مشوهًا تشوهًا غريبًا ليمسك بأصابعي. كان البرثن أشبه بحافر الغزال بما فيه من مخالب. كنت سأصرخ من الدهشة والألم. اقترب بوجهه للأمام، وأنعم النظر في أظافري، وظهر في ضوء مدخل الكوخ، فلاحظت ما جعل فرائصي ترتعد من الاشمئزاز؛ فكان له وجه ليس ببشري ولا حيواني، بل كتلة كثة من الشعر الرمادي، وثلاثة تقوسات ظليلة تميز العينين والفم.

قال ذلك المخلوق المروع بلحيته كثيفة الشعر: «لديه أظافر صغيرة، هذا جيد.»

ألقى بيدي تاركًا إياها من بين يديه، ووجدت نفسي على نحو غريزي أمسك بعصاي. قال الرجل القرد: «نتناول الجذور والأعشاب، هذه مشيئته.»

فقال الكائن الرمادي: «أنا الناطق بالقانون. يأتي إلى هنا كل وافد جديد ليتعلم القانون. أجلس في الظلام، وأنطق بالقانون.»

قال أحد الوحوش الموجودين عند المدخل: «هو كذلك بالفعل.»

– «ومن يخالف القانون عقابه عظيم. ولا أحد يهرب منه.»

ردد البشر الحيوانات وبعضهم يرمق بعضًا بنظرات خاطفة: «لا أحد يهرب.»

قال الرجل القرد: «لا أحد، لا أحد يهرب. ارتكبت خطأً صغيرًا ذات مرة؛ أخذت أثرثر على نحو غير مفهوم، وتوقفت عن الكلام. لم يفهمني أحد. كُويت بالنار، ووُسِمْت بها في يدي. إنه عظيم، إنه صالح!»

قال المخلوق الرمادي القابع في الزاوية: «لا أحد يهرب.»

وردد البشر الحيوانات، وهم ينظرون بعضهم لبعض بطرف أعينهم: «لا أحد يهرب.»

قال الكائن الرمادي الناطق بالقانون: «لكل شخص رغبة في فعل أمر سيئ. ماذا ترغب أنت. لا نعلم، لكننا سنرى. فالبعض يرغب في ملاحقة الأشياء التي تتحرك، والمراقبة، والتسلل خلسة، والانتظار، والانقضاض، والقتل، والعض؛ العض بوحشية وشراسة لمص الدماء ... هذا أمر سيئ. محظور ملاحقة البشر الآخرين؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟ محظور تناول اللحم أو السمك؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»

قال حيوان أرقط يقف عند المدخل: «لا أحد يهرب.»

عاد الكائن الرمادي الناطق بالقانون للحديث: «لكل شخص رغبة في فعل أمر سيئ. البعض يرغب في تمزيق الجذور بأسنانه ويديه، وتشمم الأرض ... هذا أمر سيئ.»

قال الرجال الواقفون عند الباب: «لا أحد يهرب.»

– «البعض يرغب في تمزيق الأشجار بالمخالب، في حين ينبش آخرون قبور الموتى. البعض يرغب في العراك بالجباه أو الأقدام أو المخالب، وآخرون يعضون فجأة دون أي داعٍ، والبعض يحب القذارة.»

قال الرجل القرد، وهو يحك ربلة ساقه: «لا أحد يهرب.»

وردد الكائن الصغير ذو اللون الوردي الشبيه بالكسلان: «لا أحد يهرب.»

عاود الكائن الرمادي الحديث: «العقاب شديد ومحتوم، لذا عليك تعلم القانون. قُل هذه الكلمات»، ثم بدأ — على نحو يفتقر إلى التحكم بالذات — في التغني بترنيمة القانون الغريبة ثانيةً، وأخذت في الغناء والتمايل من جديد مع تلك الكائنات. أصابتني تلك الثرثرة — إلى جانب الرائحة النتنة للمكان — بالدوار. لكنني واصلت ثقةً مني في أن أجد عما قريب فرصة ما لتطور جديد. «محظور السير على أربع؛ هذا هو القانون، ألسنا بشرًا؟»

وصلت الضوضاء التي كنا نحدثها درجة لم ألحظ معها أي ضجيج بالخارج، إلى أن دفع أحدهم — أظنه كان أحد الرجلين الخنزيرين اللذين سبقت لي رؤيتهما — برأسه من وراء الكائن الصغير ذي اللون الوردي الشبيه بالكسلان، وصاح بشيء متحمسًا. لم أتمكن من فهم ما قال. اختفى في التو من كانوا يقفون عند مدخل الكوخ، واندفع الرجل القرد إلى الخارج، ولحق به الكائن الذي كان يجلس في الظلام — لم ألاحظ حينذاك سوى أنه كان ضخمًا وأخرق ومغطى بشعر فضي اللون — ولم يبق سواي في المكان.

قبل أن أصل إلى الفتحة سمعت نباح أحد كلاب الصيد.

وفي غضون لحظة أخرى كنت أقف خارج الكوخ والعصا — التي نزعتها من الكرسي — في يدي، وكل عضلة بجسمي ترتعد. رأيت أمامي الظهور القبيحة لنحو عشرين من هؤلاء البشر الحيوانات، ورءوسهم المشوهة شبه مختفية بين عظام أكتافهم. كانوا يلوحون بأيديهم على نحو متحمس، في حين برزت وجوه شبه حيوانية من الأكواخ مستفسرة عما يحدث. عندما نظرت إلى حيث ينظرون، رأيت مورو بعبوسه ووجهه الشاحب القبيح يأتي من بين السديم تحت ظلال الأشجار الموجودة في نهاية الممر المحتوي

على الأوكار. كان مورو يمسك بظهر كلب الصيد الذي يثب، ومن ورائه مونتجومري على مسافة قريبة منه، يحمل مسدسًا في يده.

وقفت لحظة مدهوشًا من شدة الرعب.

استدرت، فرأيت الممرات خلفي مسدودة بحيوان آخر ضخم رمادي وله وجه كبير وعينان صغيرتان براقتان، كان يتقدم نحوي. نظرت حولي، ورأيت عن يميني، وعلى بعد نحو ستة أمتار أمامي، فجوة ضيقة في جدار صخري يميل فيه شعاع ضوئي بين الظلال. عند سيري سريعًا إلى ذلك المكان صاح مورو: «قف! أمسكوا به!» فالتفت ناحيتي وجه واحد من بين هذه الوجوه، ثم تلاه آخرون. كانوا أغبياء لحسن الحظ.

دفعت بكتفي مسخًا دميمًا كان يستدير ليرى ما يعنيه مورو، وقذفت به للأمام نحو مسخ آخر. شعرت بيديه تتحركان نحوي محاولًا الإمساك بي، لكنه أخفق. اندفع أيضًا الكائن الصغير ذو اللون الوردي الشبيه بالكسلان نحوي، فجرحته جرحًا بليغًا في وجهه القبيح بالمسمار الناتئ من عصاي. وفي خلال دقيقة أخرى كنت في طريقي صاعدًا ممرًّا جانبيًّا عاليًا أشبه بمدخنة مائلة تؤدي إلى خارج الوادي. سمعت نباحًا خلفي، وأحد يصيح: «اقبضوا عليه! أمسكوا به!» ظهر المخلوق ذو الوجه الرمادي خلفي، وحشر جسمه الضخم في الصدع. أخذوا يصيحون: «استمر! استمر!» تسلقت بجهد الصدع الضيق في الصخرة، وخرجت إلى الكبريت الذي يغطي الجانب الغربي لقرية البشر الحيوانات.

كنت سعيد الحظ بدخولي إلى تلك الفجوة، فالطريق الضيق المنحدر بميل إلى أعلى اعترض بالتأكيد سبيل من كانوا يطاردونني ويقتربون مني. ركضت بالمساحة البيضاء، ثم نزلت من منحدر شديد الانحدار عبر مجموعة متناثرة من الأشجار، ووصلت إلى أشجار خيزران طويلة ممتدة على ارتفاع منخفض. شققت طريقي عبر تلك الأشجار إلى شجيرات كثيفة مظلمة كانت سوداء وغضَّة تحت قدمي. بينما كنت أندفع بين أشجار الخيزران إذ ظهر أول من كانوا يطاردونني من الفجوة. أخذت أسير بين تلك الشجيرات بضع دقائق. وسرعان ما ملأت صيحات التهديد المكان من حولي. وسمعت ضجيج من يطاردونني في الفجوة الموجودة على الشاطئ، ثم صوت تحطم أشجار الخيزران، ومن حين لآخر كنت أسمع صوت انكسار أحد فروع الأشجار. كان بعض تلك الكائنات يزأر كحيوانات ضارية مهتاجة. سمعت كذلك مورو ومونتجومري يصيحان في الاتجاه نفسه. استدرت إلى أقصى اليمين. وبالرغم من كل ما يحدث بدا لي أنني سمعت مونتجومري يصيح فيّ لأنجو بحياتي.

صارت الأرض تحت قدمي طينية خصبة؛ لكنني كنت يائسًا، فخضتها مسرعًا ليصل الطين إلى ركبتيّ، ثم وصلت إلى طريق متعرج بين أشجار خيزران طويلة. اختفى صوت الملاحقين عن يساري. وفي إحدى البقاع اندفعت أمامي ثلاثة حيوانات غريبة وردية اللون تشبه القطط في حجمها. امتد ذلك الممر إلى أعلى عبر مكان مفتوح آخر مغطى بنباتات بيضاء، ودخلت في مأوى من أشجار الخيزران مرة أخرى.

صار الطريق فجأة موازيًا لحافة فجوة مسوَّرة شديدة الانحدار ظهرت دون سابق إنذار كالخنادق الموجودة في المتنزهات الإنجليزية، تبدت على نحو مباغت غير متوقع. ظللت أركض بكل ما أوتيت من قوة، ولم ألاحظها مطلقًا إلى أن وجدت نفسي أطير في الهواء.

سقطت على ساعديّ ورأسي بين الأشواك، وعندما نهضت كان شق بأذني ونزيف بوجهي. سقطت في وادٍ شديد الانحدار مليء بالصخور والأشواك، ويخيم عليه ضباب غائم يتدافع حولي في صورة خيوط دخانية، وبه نهير ضيق ينبعث منه ذلك الضباب ويجري متعرجًا في المنتصف. تعجبت من وجود ذلك الضباب الرقيق أثناء وهج النهار، لكن لم يكن لدي من الوقت ما يسمح لي بالوقوف لأتساءل. توجهت يمينًا نحو النهير، آملًا في أن أصل إلى البحر من هذا الاتجاه، ومن ثم تُتاح لي الفرصة لإغراق نفسي. ولم أكتشف إلا لاحقًا أنني قد أضعت عصاي ذات المسمار الناتئ عند سقوطي.

صار الوادي في ذلك الوقت أكثر ضيقًا. خطوت بلا مبالاة إلى النهير، ثم قفزت خارجه ثانيةً بأقصى سرعة، إذ كاد الماء يغلي. لاحظت أيضًا طبقة رقيقة من الزبد الكبريتي تطفو على سطح مياهه المتموجة. ظهر بعد ذلك مباشرة منعطف في الوادي وأفق أزرق غير واضح. كانت أشعة الشمس تومض على سطح البحر ببقع لا حصر لها. رأيت نهايتي أمامي، لكن جسمي كان ساخنًا، وكنت ألهث، ووجهي متورد بالدم الدافئ الذي كان يسري بلطف في عروقي. تملكني في تلك اللحظات شعور بالغبطة لابتعادي عمن يلاحقونني. ولم أشعر حينها بالرغبة في التقدم وإغراق نفسي، فأخذت أحدق في الطريق الذي أتيت منه.

أنصت، فلم أسمع سوى طنين البعوض وصرير بعض الحشرات الصغيرة التي كانت تثب بين الأشواك. فيما عدا ذلك كان الهدوء يخيم على المكان. سمعت بعد ذلك صوت نباح أحد الكلاب، كان خفيضًا للغاية، وثرثرة وتمتمة، ثم ضربة سوط وأصوات أخرى، أخذت تعلو، ثم تخبو ثانيةً. أخذت تلك الضوضاء تبتعد باتجاه النهير، ثم اختفت. وتوقفت المطاردة بعض الوقت.

لكنني أدركت حينذاك قدر المساعدة التي يمكن أن آمل في الحصول عليها من البشر الحيوانات.

الفصل الثالث عشر

مفاوضة

استدرت ثانيةً، وتوجهت لأسفل ناحية البحر. اتسع جدول المياه الساخنة ليتحول إلى أرض رملية ضحلة كثيرة الأعشاب، تسبب وقع أقدامي بها في إفزاع القدر الوفير من السلطعون، والكائنات الأخرى طويلة الجسم وكثيرة الأرجل التي كانت تملؤها. سرت نحو أقصى حافة المياه المالحة، وشعرت حينها بالأمان. استدرت بعد ذلك، وحدقت — واضعًا يدي على خاصرتي — في النباتات الخضراء الكثيفة خلفي، التي كان يتخللها الوادي الضيق الذي ينبعث منه البخار كما لو كان شقًّا يصدر دخانًا. لكنني كنت منفعلًا للغاية، بل كنت أتوق بشدة لأن أموت؛ هذه هي الحقيقة، بالرغم من أن من لم يعرفوا الخطر من قبل قد يشكون في ذلك.

راودتني بعد ذلك فكرة أنه لا تزال هناك فرصة واحدة سانحة أمامي؛ بينما يطاردني مورو ومونتجومري، ومجموعة الوحوش على الجزيرة، لماذا لا أسير على الشاطئ حتى أصل إلى المنطقة المسيجة التي يقيمون فيها، وأهاجمهم من الجانب، ثم أحطم قفل الباب الأصغر باستخدام صخرة ربما أنزعها من السور غير محكم البناء، وأرى ما يمكنني العثور عليه — سكين أو مسدس أو أي شيء آخر — لأقاتلهم به عند عودتهم؟ كانت على أي حال فرصة أمامي لكي لا أموت بلا ثمن.

استدرت ناحية الغرب، وسرت على طول حافة المياه. كانت الشمس الآخذة في الغروب تلقي بأشعتها الساطعة في عيني، ومياه المحيط الهادئ تترقرق في هدوء.

صارت مساحة الشاطئ تضيق في ذلك الوقت ناحية الجنوب، والشمس أصبحت عن يميني. وفجأة رأيت أمامي شخصًا، ثم عدة أشخاص يخرجون من بين الأحراش؛ كان مورو مع كلبه الرمادي، ثم مونتجومري، ثم اثنين آخرين. عندئذٍ توقفت.

وقع بصرهم عليّ، فأخذوا يشيرون ويتقدمون نحوي. ركض البشريان الحيوانان للأمام ليعترضا طريقي من ناحية الشجيرات داخل الجزيرة. جاء مونتجومري راكضًا أيضًا، لكن متوجهًا نحوي مباشرةً، وتبعه مورو بخطى أبطأ مع الكلب.

وأخيرًا استفقت من حالة التسمُّر التي انتابتني، فاستدرت ناحية البحر متوجهًا مباشرة إلى داخل المياه. كانت المياه ضحلة للغاية في بادئ الأمر، ولم تصل الأمواج إلى خاصرتي إلا بعد أن خضت الماء بنحو ثلاثين مترًا. لاحظت بصعوبة الكائنات البحرية التي تعيش بالقرب من الشاطئ، وهي تبتعد سريعًا عن قدميّ.

صاح مونتجومري: «ما الذي تفعله يا رجل؟»

استدرت، وأنا أقف في المياه التي تصل إلى خاصرتي، وحدقت فيهم.

وقف مونتجومري لاهثًا عند حافة المياه، وقد تورد وجهه من أثر الإجهاد، وشعره البني الطويل منسدل، وشفته السفلية المتدلية تكشف عن أسنانه غير المنتظمة. اقترب مورو لتوه منَّا، وقد علا وجهه الشحوب والصرامة. نبح الكلب الذي كان يمسكه في وجهي. وكان بحوزة الرجلين أسواط قوية. وقف البشر الحيوانات محدقين بعيدًا على الشاطئ.

قلت: «ما الذي أفعله؟ سأُغرق نفسي.»

نظر مونتجومري ومورو أحدهما إلى الآخر، وسألني مورو: «لماذا؟»

– «لأن هذا أفضل من أن أتعذب على يديك.»

قال مونتجومري: «لقد أخبرتك بذلك»، وقال مورو شيئًا ما بصوت خفيض.

سأل مورو: «ما الذي دفعك للتفكير في أنني سأعذبك؟»

قلت: «ما رأيته، وهؤلاء الواقفون هناك.»

قال مورو، وقد رفع يديه: «صه!»

فرددت عليه: «لن أصمت. كانوا بشرًا، فما هم الآن؟ على الأقل، لن أكون واحدًا منهم»، ونظرت خلف محدثِّي. على الشاطئ كان يقف ميلينج — مرافق مونتجومري — وواحد من الحيوانات المضمدة بأربطة بيضاء التي كانت في القارب. وبعيدًا خلفهما، في ظل الأشجار، رأيت الرجل القرد صغير الحجم، وخلفه بعض الأفراد الآخرين غير واضحي الملامح.

قلت مشيرًا إليهم، ورافعًا صوتي أكثر عَله يصل إليهم: «ما هذه المخلوقات؟ لقد كانوا بشرًا؛ بشرًا مثلكما، مسختماهم حيوانات، بشرًا استعبدتماهم، ولا تزالان تخافانهم»،

وصحت، مشيرًا الآن إلى مورو، وموجهًا حديثي إلى الحيوانات الآدمية من خلفه: «أنتم! يا من تسمعونني! ألا تروا أن هذين الرجلين لا يزالان يخافانكم، ويفزعان منكم؟ لماذا إذن تهابونهما؟ إنكم تفوقونهما عددًا ...»

صاح مونتجومري: «بالله عليك! توقف يا بريندِيك!»

وكذلك فعل مورو: «بريندِيك!»

صاح الاثنان معًا كما لو كانا يريدان التشويش على صوتي. ومن خلفهم خفض البشر الحيوانات وجوههم المحدقة لأسفل في اندهاش، وتدلت أياديهم المشوهة، وانحنت أكتافهم. بدا عليهم — كما تصورت حينذاك — أنهم يحاولون فهمي، وتذكر شيء عن ماضيهم كآدميين.

واصلت الصياح، ولا أتذكر جيدًا ما كنت أصيح به. قلت إنه يمكن قتل مورو ومونتجومري، وإنه لا يجب الخوف منهما، كانت تلك الأفكار التي أردت زرعها في رءوس البشر الحيوانات قبل أن أهلك نفسي بيدي. وقع بصري على الرجل، الذي كانت عيناه تلمعان ببريق أخضر ويرتدي ملابس بالية، والتقيته ليلة وصولي. خرج من بين الأشجار، ولحق به آخرون ليتمكنوا من سماعي جيدًا.

وأخيرًا، توقفت لألتقط أنفاسي.

قال مورو بصوته الرصين: «أنصت إليَّ لحظة، ثم قل ما شئت.»

أجبته: «حسنًا!»

سعل، وفكر، ثم صاح: «باللاتينية، بريندِيك! لغتي اللاتينية سيئة، كطلاب المدارس! لكن حاول أن تفهمني.» ثم قال باللاتينية ما يعني: «هؤلاء ليسوا بشرًا، إنهم حيوانات نحتفظ بها ... حيوانات خضعت للتشريح ... لعملية تحويل إلى بشر. سوف أشرح لك. اخرج إلى الشاطئ.»

ضحكت، وقلت: «يا لها من قصة! إنهم يتحدثون، ويشيدون المنازل، ويطهون الطعام. إنهم بشر. لا أعتقد أنني سأخرج إلى الشاطئ.»

– «المياه خلف المكان الذي تقف فيه عميقة ... ومليئة بأسماك القرش.»

فقلت له: «هذه الطريقة التي أرغب أن أموت بها. سريعًا، وبقسوة ... الآن.»

قال: «انتظر لحظة»، ثم أخرج شيئًا من جيبه لمع في أشعة الشمس، وأسقطه عند قدميه، ثم تابع حديثه: «هذا مسدس محشو بالأعيرة النارية. وسيفعل مونتجومري الأمر نفسه. سنبتعد عن حافة المياه إلى أن تشعر بأن المسافة أصبحت آمنة. وبعد ذلك، تعال وخذ المسدسين.»

– «لن أفعل. فأنتم ثلاثة.»

– «أريدك أن تفكر في الأمر مليًّا يا برينديك. أولًا، أنا لم أطلب منك مطلقًا المجيء إلى هذه الجزيرة. ثانيًا، لقد أعطيناك مخدرًا ليلة أمس، وإن كنا ننوي إيذاءك لفعلنا، والآن بعد أن تبدد شعورك بالذعر يمكنك التروي قليلًا في التفكير؛ هل كان مونتجومري أهلًا لانطباعك عنه؟ لقد طاردناك لمصلحتك، فهذه الجزيرة مليئة بـ ... بالظواهر العدائية. ولماذا قد نرغب في إطلاق النار عليك، في حين أنك قد قررت إغراق نفسك؟»

– «لماذا أطلقت ... تابعيك عليَّ عندما كنت في الكوخ؟»

– «حرصنا على الإمساك بك، وإبعادك عن الخطر. وبعد ذلك توقفنا عن المطاردة لمصلحتك.»

تأملت ما قاله، وبدا لي معقولًا، ثم تذكرت شيئًا آخر.

قلت: «لكنني رأيت في المنطقة المسيجة ...»

– «كانت تلك أنثى الكوجر.»

قال مونتجومري: «اسمع يا برينديك! يا لك من أحمق! اخرج من الماء، وخذ المسدسين، ثم قل ما تريد. لا يمكننا فعل ما هو أكثر مما نفعله الآن.»

أعترف أنني في تلك اللحظات — بل في كل لحظة — كنت لا أثق في مورو، وأخشاه. أما مونتجومري فكنت أشعر بأنني أفهمه.

قلت بعد تفكير: «ابتعدا عن الماء» وأضفت: «وارفعا أيديكما لأعلى.»

قال مونتجومري، وهو يهز رأسه موضحًا: «لا يمكنني فعل ذلك. إنه أمر مهين.»

قلت له: «توجه إلى الأشجار، كما تشاء.»

فجاء رده: «يا لها من أفعال حمقاء لعينة!»

استدار كلاهما ليواجها ستة أو سبعة كائنات غريبة كانت تقف هناك في ضوء الشمس بثبات، تلقي بظلالها على المكان، وتتحرك، لكن على نحو غير طبيعي تمامًا. ضرب مونتجومري سوطه باتجاههم، فاستداروا جميعًا في الحال، وفروا في حركة فوضوية بين الأشجار. وعندما ابتعد مونتجومري ومورو مسافة بدت كافية في نظري، تقدمت في الماء باتجاه الشاطئ، والتقطت المسدسين، وفحصتهما. ولأتأكد من عدم تعرضي للخداع أطلقت عيارًا ناريًا على كومة من صخور الحمم البركانية، وسعدت بمنظر الصخور وهي تتهشم، والرصاص يتطاير على الشاطئ.

لكنني ترددت لحظة.

وأخيرًا قلت: «سوف أغامر»، ثم سرت على الشاطئ باتجاههما ممسكًا بمسدس في كل يد.

قال مورو بلهجة خلت من أي مشاعر: «هذا أفضل. لكنك أفسدت أفضل جزء في اليوم بخيالك اللعين.»

واستدار مع مونتجومري بشيء من الازدراء الذي أشعرني بالإهانة، وسارا في صمت أمامي.

وقفت مجموعة البشر الحيوانات، والحيرة لا تزال تسيطر عليهم، في الخلف بين الأشجار. تجاوزتهم على أقصى نحو ممكن من الهدوء. همَّ أحدهم باتباعي، لكنه تراجع ثانية عندما ضرب مونتجومري سوطه في الهواء. وقف الباقون في صمت يشاهدون ما يحدث. ربما كانوا حيوانات من قبل، لكنني لم أر في حياتي قط حيوانًا يحاول التفكير.

الفصل الرابع عشر

الدكتور مورو يفسِّر

ما إن انتهينا من تناول الطعام والشراب حتى بدأ الدكتور مورو حديثه: «والآن، يا برينديك، سأفسر لك الأمر. عليَّ أن أُقر بأنك أكثر ضيف استقبلته استبدادًا. وأحذرك من أن هذا سيكون آخر صنيع أقدمه لك. وإذا هددت بالانتحار ثانيةً، فلن أفعل شيئًا حيال ذلك — وإن جاء ذلك على حساب مصلحتي الشخصية.»

جلس في الكرسي القابل للطي ممسكًا بنصف لفافة تبغ بين أصابعه البيضاء التي يبدو عليها احترافه العمل اليدوي. انعكس ضوء المصباح المتأرجح على شعره الأبيض، وأخذ يحدق في ضوء النجوم عبر النافذة الصغيرة. جلست بعيدًا عنه بأقصى قدر ممكن، والمائدة تفصل بيننا، والمسدسان في متناول يدي. لم يكن مونتجومري حاضرًا، وإن لم يكن لدي مانع في أن أكون مع كليهما في تلك الغرفة الصغيرة.

قال مورو: «لقد اعترفت بلسانك أن ما كان يخضع للتشريح حيًّا — كما وصفت — ليس سوى أنثى كوجر، أليس كذلك؟» أخذني بعد ذلك لزيارة ذلك الشيء المرعب في الغرفة الداخلية لأتأكد من أنه ليس بشرًا.

قلت له: «إنها أنثى كوجر بالفعل؛ حية، لكن ما يملأ جسمها من جروح وتشوهات يجعلني أدعو الرب ألا أرى لحمًا حيًّا ثانية. هذا أمر شنيع ...»

قال مورو: «لا عليك من ذلك، أو على الأقل جنبني الاستماع لهذه المخاوف الصبيانية. كان مونتجومري مثلك تمامًا. إذن أنت تُقر بأنها أنثى كوجر، فلتصمت الآن إلى أن أفرغ من إلقاء محاضرتي في علم وظائف الأعضاء عليك.» وبدأ يشرح لي ما يقوم به من عمل بنبرة صوت شخص يشعر بملل شديد، لكن ازداد حماسه قليلًا بمرور الوقت. وكان يشوب صوته بين الحين والآخر بعض التهكم. شعرت آنذاك بالخجل الشديد من موقفي.

لم تكن المخلوقات التي رأيتها بشرًا، ولم تكن كذلك من قبل. إنها حيوانات؛ حيوانات محولة إلى بشر كأدلة على انتصار علم تشريح الأحياء.

قال مورو: «لقد نسيتَ كل ما يمكن لمشرِّح حيوانات حية ماهرٍ فعلُه. وأنا من جانبي متحير لماذا لم يسبقني أحد فيما فعلته هنا؟ كانت هناك محاولات بسيطة بالطبع، من بتر، وقطع للألسنة، واستئصال. أنت بالتأكيد تعلم أن الحَوَل يمكن تحفيزه أو علاجه بالتدخل الجراحي؟ وفي حالة الاستئصال يمكن أن تجري كافة صور التغييرات الثانوية، وتوزيع الصبغات، وتعديل المشاعر، وإدخال تغييرات على إفراز النسيج الدهني. لا ريب أنك قد سمعت عن كل تلك الأمور من قبل، أليس كذلك؟»

قلت: «بالطبع، لكن هذه المخلوقات الكريهة التي تحتفظ بها ...»

رد مشيرًا بيديه إليّ لأتوقف عن الحديث: «كلٌّ في أوانه، فأنا لا أزال في بداية حديثي. ما ذكرته ليس سوى حالات بسيطة للتحويل. يمكن للجراحة التوصل إلى ما هو أفضل من ذلك؛ فهناك البناء، والهدم، والتغيير. ربما سمعت عن العملية الجراحية التي يُلجأ إليها عادةً في حالات تعرض الأنف لضرر بالغ. تؤخذ سديلة جلدية من الجبهة، وتوضع على الأنف لتلتئم بعد ذلك في موضعها الجديد. يُعد ذلك صورة من صور التطعيم لجزء من جسم حيوان ما في مكان جديد بالجسم نفسه. ويمكن أيضًا تطعيم أجزاء مأخوذة حديثًا من حيوان آخر، كما هو الحال مع الأسنان، على سبيل المثال. ويُجرى تطعيم الجلد والعظام لتيسير عملية الشفاء، فيضع الجراح في وسط الجرح قطعًا من الجلد نُزعت من حيوان آخر، أو أجزاء من عظام أُخذت من ضحية لقيت حتفها حديثًا. حققت التجربة التي أجراها الجراح الاسكتلندي هانتر — ربما سمعت عنها — نجاحًا عند إجرائها على أعناق الثيران. ومن الأمثلة الأخرى أيضًا على ذلك الفئران وحيدة القرن التي استخدمتها قوات «الزواف الجزائرية». إنها وحوش صُممت بنقل شِقة من ذيل فأر عادي إلى خطمه، وتركها تلتئم في ذلك الموضع.»

فقلت: «وحوش صُممت! أنت تعني إذن ...»

– «نعم. تلك المخلوقات التي رأيتها هي حيوانات شُرِّحت وشُكلت بصور جديدة. وقد كرست حياتي لذلك؛ لدراسة مطاوعة الصور الحية. تناولت الأمر بالدراسة سنوات، محصِّلًا المعرفة أثناء ذلك. ألاحظ عليك الرعب، مع أنني لا أخبرك بشيء جديد؛ فكل ذلك كان واضحًا وضوح الشمس في مجال التشريح العملي عدة سنوات، لكن لم يمتلك أحد الجرأة للتعرض له. وليس الشكل الخارجي فقط للحيوان هو الذي أستطيع تغييره،

بل يمكن إخضاع وظائف الأعضاء، والتناغم الكيميائي للمخلوق لتعديل دائم، وذلك عن طريق وسائل من المؤكد أنك تعرفها مثل التطعيم وغيره من أساليب التلقيح المستخدمة مع الكائنات الحية أو الميتة. ويُعد نقل الدم من العمليات المشابهة أيضًا، وكان نقطة البداية التي انطلقت منها. كل هذه حالات مُتعارف عليها، لكن الأقل شيوعًا، وربما الأكثر شمولًا، هو العمليات التي أجراها أطباء القرون الوسطى، وصمموا من خلالها أقزامًا، وكسحاء متسولين، ووحوشًا تُستخدم في العروض. ولا تزال بعض آثار ذلك الفن مستخدمة بصورة أولية بواسطة المشعوذين أو لاعبي السيرك. وقد تناول فيكتور هوجو هذه الشخصيات في روايته «الرجل الضاحك» ... أظن أن ما أعنيه قد اتضح لك الآن. فقد بدأت ترى أنه من الممكن زرع نسيج يُنزع من أحد أجزاء جسم حيوان ما في جزء آخر بالجسم نفسه، أو من حيوان لآخر، وكذلك تعديل ما يجريه الجسم من تفاعلات كيميائية، وطرق نموه، وتعديل مفاصل الأطراف، وإضفاء تغييرات بالتأكيد على هيكله الجوهري، أليس كذلك؟

بالرغم من ذلك، فلم يسع الباحثون المعاصرون أبدًا لخوض ذلك الفرع المذهل من المعرفة باعتباره غاية في حد ذاته، حتى تناولته أنا! وقد جرى التوصل إلى بعض هذه الأمور عن طريق الجراحة التي استُخدمت كآخر خيار متاح. وأقرب الأدلة التي قد ترد على ذهنك كُشف عنها بالمصادفة، بواسطة طغاة، ومجرمين ومربيِّ الخيول والكلاب، وجميع أصناف الرجال غير المدربين والمفتقرين إلى المهارة الذين يسعون لتحقيق مصالحهم الآنية، فكان لي الأسبقية في تناول هذا الأمر مستعينًا بالجراحة التطهيرية، والمعرفة العلمية الجيدة بقوانين النمو.

لكن يمكننا تصور أن مثل هذه الممارسات قد تمت في الخفاء من قبل. ومن الأمثلة على ذلك التوائم السيامية ... وداخل سراديب محاكم التفتيش. كان الغرض الرئيسي من تلك الممارسات هو التفنن في التعذيب بلا شك، لكن، على الأقل، كان لدى المحققين في تلك المحاكمات بعض الفضول العلمي بالتأكيد ...»

قلت: «لكن هذه الأشياء ... هذه الحيوانات تتكلم!»

فجاءت إجابته بالإيجاب، وواصل حديثه موضحًا كيف أن الإمكانات التي ينطوي عليها علم تشريح الأحياء لا تقف عند التحول الجسماني فحسب، فالخنزير يمكن أن يتعلم، بل إن التكوين العقلي أكثر مطاوعة من البدني. وقد منح علم التنويم المغناطيسي الناشئ حديثًا العلماء أملًا في إمكانية استبدال أفكار جديدة بالغرائز الفطرية القديمة،

وذلك عن طريق زرع أفكار جديدة بدلًا من الأفكار القديمة الثابتة الموروثة، أو استبدالها. إن قدرًا كبيرًا، بالتأكيد، مما نطلق عليه التربية الأخلاقية ليس سوى حماية وتعديل مصطنع للغرائز؛ فالعدوانية تُرَوَّض لتصبح تضحية باسلة بالنفس، والشهوانية الجنسية المكبوتة تتحول إلى ورع. يتمثل الفارق الرئيسي بين الإنسان والقرد في الحنجرة — وفقًا لقوله — أي في عدم قدرة القرد على الصياغة الدقيقة لرموز الأصوات المختلفة التي يمكن بها تعزيز الأفكار. لم أتفق معه في هذه النقطة، لكنه لم يكترث لاعتراضي، وكان فظًّا في ذلك. وكرر قوله إن هذه هي الحقيقة، ثم استمر في شرح عمله.

لكنني سألته عن سبب اتخاذه الشكل البشري نموذجًا له. بدا لي حينذاك — ولا يزال يبدو لي — أن ثمة شرًّا غريبًا في ذلك الاختيار.

فأقرَّ بأنه قد اختار هذا الشكل مصادفة، وقال: «كان بمقدوري العمل على تصميم لاما من الغنم، والعكس. لكنني أعتقد أن الشكل البشري يحمل شيئًا ما يجذب الجانب الفني للعقل على نحو أقوى من أي شكل حيواني. لكنني لم أتقيد في عملي بصنع البشر فحسب. مرة أو مرتين ...» ثم صمت نحو دقيقة، ليتابع حديثه بعد ذلك: «يا لها من سنين طوال! كم مرت سريعًا! وها قد ضيعت يومًا في إنقاذ حياتك، وأضيع ها هنا ساعة أخرى في تفسير عملي لك!»

رددت عليه: «لكنني ما زلت لا أفهم. ما تبريرك لكل تلك الآلام التي تلحقها بضحاياك؟ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعلني أغفر تشريح الأحياء هو استخدام بعض ...»

قال: «بالضبط، لكنني مختلف عنك. نحن نفكر بطرق مختلفة. فأنت تعتنق المذهب المادي.»

قلت غاضبًا: «لست معتنقًا للمذهب المادي.»

– «هذا من وجهة نظري، فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا هي هذه الفكرة المتعلقة بالألم. فما دمت تشمئز من الألم عند سماعه أو رؤيته فسيظل ما تشعر به من آلام هو ما يدفعك في أفعالك، ويكمن وراء مخططاتك لارتكاب الخطايا، وستظل حيوانًا يشعر بما يشعر به الحيوان على نحو أكثر وضوحًا. هذا الألم ...»

هززت كتفي متبرمًا من تلك السفسطة.

– «إنه أمر بسيط حقًّا، والعقل المنفتح بحق لما يقدمه لنا العلم يجب أن يرى الألم من هذا المنظور. أعتقد أنه لا يوجد شيء اسمه الألم في أي مكان آخر، إلا في هذا الكوكب

الصغير، الذي لا يتجاوز كونه بقعة بسيطة من الرماد الكوني ظلت غير مرئية إلى أن اكتُشف أقرب نجم منها. لكن القوانين التي نتقيد بها هي التي ... لماذا يوجد مثل هذا الألم، على هذه الأرض، وبين الكائنات الحية؟»

أخرج أثناء تحدثه مدية صغيرة من جيبه، وفتح الشفرة الصغرى، ثم حرك الكرسي الذي كان يجلس عليه حتى أتمكن من رؤية فخذه. وبعد أن اختار المكان بعناية، غرز الشفرة في ساقه، ثم سحبها.

– «من المؤكد أنك رأيت ذلك من قبل. إنه لا يؤلم على الإطلاق. لكن ما الذي يوضحه ذلك لك؟ إنه يوضح أن القدرة على تحمل الألم ليست ضرورية في العضلات، وليست موجودة فيها؛ لكنها ضرورية قليلًا في الجلد، وهناك بعض المناطق المتفرقة من الفخذ يمكنها الشعور بالألم. الألم هو مرشدنا الطبي الرئيسي الذي يحذرنا ويحفزنا. ليس كل اللحم الحي يسبب الألم، وكذلك جميع الأعصاب، بل الأعصاب الحسية أيضًا. فلا يشعر العصب البصري بأقل قدر من الألم؛ الألم الحقيقي. وإذا أصيب العصب البصري بجرح فكل ما سيحدث هو أنك سترى ومضات من الضوء، شأنه في ذلك شأن الإصابة بمرض في العصب السمعي، فهي لا تعني سوى سماع طنين في الأذن. لا تشعر النباتات بالألم، والأمر ينطبق أيضًا على الحيوانات الدنيا؛ فكائنات مثل نجم البحر وجراد البحر لا تشعر على الأرجح بالألم. أما الإنسان، فكلما ازداد ذكاؤه كان أكثر حرصًا على ما يحقق له الفائدة، وقلت حاجته لشيء يحثه على الابتعاد عن الخطر. لم أسمع من قبل عن شيء عديم الفائدة لم يختف من الوجود بفعل التطور عاجلًا أو آجلًا، أليس كذلك؟ والألم أصبح شيئًا غير ضروري.

أنا رجل متدين، يا برينديك، كما كل رجل عاقل يجب أن يكون. أعتقد أنني تعمقت أكثر في الاطلاع على أساليب الخلق مقارنة بك؛ لقد بحثت في قوانينه بأسلوبي الخاص طوال حياتي، في حين أن كل ما فعلته أنت — حسب ظني — هو جمع الفراشات. وصدقني إن المتعة والألم لا علاقة لهما بالجنة أو الجحيم. يا بريندیك، إن الأهمية التي يمنحها الناس لمفهوم المتعة والألم دليل على تأثير الجانب الحيواني عليهم، ذلك الجانب الذي يمثل الأساس في طبيعتهم. الألم! سيظل هناك متعة وألم ما دمنا ندفن أنفسنا في التراب ...

لقد سرت في هذا البحث على النحو الذي قادني إليه. لم أسمع عن أي طريقة أخرى لكيفية إجراء الأبحاث. طرحت تساؤلًا، ووضعت منهجًا للتوصل إلى إجابة، وما

حصلت عليه كان تساؤلًا جديدًا. هل يمكن حدوث هذا أو ذاك؟ لا يمكنك تصور ما يعنيه ذلك للباحث، وما يكتنفه من شغف فكري نتيجة له. لا يمكنك تخيل المتعة الحيادية الغريبة لتلك الرغبات الفكرية، فالشيء الذي يقف أمامك لم يعد حيوانًا، أو بشرًا مثلك، بل معضلة. الألم العصبي السمبثاوي، كل ما أعرفه عنه هو أنني أتذكر معاناتي منه منذ أعوام. لقد أردت — وكان ذلك الشيء الوحيد الذي أردته — التوصل إلى أقصى حد للمطاوعة في الكائن الحي.»

قلت: «لكن هذه معصية ...»

– «حتى يومنا هذا لم أزعج نفسي قط بشأن الجانب الأخلاقي للأمر، فدراسة الطبيعة تجعل المرء في النهاية قاسيًا لا يعرف الندم، مثله مثل الطبيعة. واصلت العمل دون أن ألتفت لأي شيء سوى التساؤل الذي أسعى للإجابة عنه ... وثمار عملي توجد في الأكواخ الموجودة هناك ... مضى على قدومنا — أنا ومونتجومري وستة من سكان هاواي الأصليين — إلى هنا نحو أحد عشر عامًا. لا أزال أتذكر سكون الطبيعة الخضراء للجزيرة، والمحيط الخالي الممتد أمامنا، كما لو كان ذلك البارحة. بدا المكان كما لو كان ينتظر قدومي.

أُنزلت المؤن، وشُيد المنزل. وأقام سكان هاواي الستة بعض الأكواخ بالقرب من الوادي الضيق. شرعت في العمل هنا على ما جلبته معي. وقعت بعض الأمور المزعجة في البداية. بدأت تجاربي على أحد الخِراف، وقتلته بعد يوم ونصف بزلة مشرط. أخذت خروفًا آخر، وصنعت منه شيئًا ما من الألم والخوف، وتركته مقيدًا ليتعافى. بدا بشريًّا إلى حد بعيد في نظري عندما انتهيت منه، لكن عندما ذهبت إليه بعد ذلك أزعجني الأمر؛ فقد تذكرني، وفزع فزعًا يفوق التصور، ولم تتجاوز قواه العقلية ما تتمتع به الخراف. وفي كل مرة أراه فيها كان يبدو أكثر افتقارًا للصقل، إلى أن أرحته من معاناته. ما كانت هذه الحيوانات لتجدي نفعًا في تصميم البشر، فقد كانت تفتقر إلى الشجاعة، ويتملكها الشعور بالخوف ويدفعها الألم، ولا تتمتع بأي قدرة على مجابهة التعذيب.

أجريت التجربة بعد ذلك على غوريلا، وأوليتها عناية متناهية، وبعد التغلب على الصعوبات التي واجهتني واحدة تلو الأخرى صممت أول كائن بشري لي. استغرق تصميمه أسبوعًا كاملًا من العمل ليل نهار. كان المخ هو الشيء الرئيسي الذي تطلب صياغة في ذلك الكائن؛ فاستلزم مني إضافة الكثير، وتغيير أشياء أخرى عديدة. ورأيته نموذجًا جيدًا للرجل الزنجي عندما صممته. كان مستلقيًا أمامي مضمدًا ومكبلًا لا

يحرك ساكنًا. لم أتركه إلا عندما اطمأننت على حياته. وعندما عدت إلى الغرفة وجدت مونتجومري وقد اعترته الحالة التي اعترتك؛ فقد سمع بعض الصرخات أثناء تحول الكائن إلى إنسان، كتلك التي أزعجتك. لم أكن أثق في مونتجومري بالكامل في بادئ الأمر. لاحظ سكان هاواي الستة أيضًا شيئًا عن ذلك الكائن. وصاروا يفقدون صوابهم من الرعب عندما يرونني. تمكنت من إعادة مونتجومري إلى صفي — على نحو ما — لكننا بذلنا جهدًا كبيرًا لنمنع سكان هاواي من ترك الجزيرة. وقد تركوها بالفعل في النهاية، وفقدنا بذلك اليخت. قضيت أيامًا عديدة في تعليم ذلك الكائن، وبلغت الفترة التي قضيتها معه نحو ثلاثة أو أربعة أشهر. علمته مبادئ اللغة الإنجليزية، وزودته ببعض الأفكار حول الحساب، بل جعلته أيضًا يقرأ الأبجدية. لكنه كان بطيئًا في ذلك الأمر، وإن كنت قد قابلت أغبياء أبطأ منه. بدأ تعلمه كصفحة بيضاء من الناحية العقلية؛ فلم تكن لديه أي ذكريات حول ما كان عليه من قبل. وعندما التأمت جروحه، ولم يعد يشعر بأي ألم أو تيبس، وصار قادرًا على التحدث قليلًا، أخذته إلى هناك، وقدمته لسكان هاواي كمسافر مستخْفٍ مثير للاهتمام.

كانوا مذعورين منه للغاية في البداية، الأمر الذي أزعجني إلى حد ما، فقد كنت مختالًا به. لكنه بدا دمثًا، وكان خانعًا للغاية، مما جعلهم يستقبلونه بعد ذلك، ويتولون مهمة تعليمه. كان سريعًا في التعلم، وبارعًا في المحاكاة والتكيف، شيد لنفسه كوخًا أفضل — من وجهة نظري — من الأكواخ التي بناها هؤلاء الأفراد، الذين كان من بينهم واحد أقرب للمبشِّرين، فعلمه كيف يقرأ، أو على الأقل كيف يميز الحروف، وزوده ببعض الأفكار المبدئية عن الأخلاق، لكن يبدو أنه كانت لديه بعض العادات غير المستحسنة.

استرحت من العمل بضعة أيام، وكنت أفكر في الكتابة عن الأمر برمته لإيقاظ العاملين في مجال علم وظائف الأعضاء بإنجلترا من سباتهم. صادفت فيما بعد ذلك الكائن جاثمًا على إحدى الأشجار ومتحدثًا بكلام غير مفهوم إلى اثنين من سكان هاواي اللذين تعمدا مضايقته. هددته، وأخبرته أن ما يفعله أمر بربري، جعلته يشعر بالخزي، وأتيت إلى هنا عاقدًا العزم على أن أطور ما صنعته قبل أن أنقل عملي إلى إنجلترا. سارت الأمور إلى الأفضل معي بالفعل، لكن حدث تراجع ثانيةً، فبدأت تلك الطبيعة الحيوانية العنيدة تعاود الظهور، يومًا بعد يوم … ما أعنيه هو تحسين الأمور، أعني التغلب على ذلك. إن أنثى الكوجر هذه …

هذه هي القصة: توفي سكان هاواي الستة جميعهم، فسقط أحدهم من فوق القارب، في حين توفي آخر متأثرًا بجرح في كعبه أصابه بالتسمم من عصارة أحد النباتات. وغادر

ثلاثة الجزيرة على متن اليخت، وأظن — بل أتمنى — أن يكونوا قد غرقوا. أما الأخير ... فقد قُتل. حسنًا، لقد استبدلتهم. وفعل مونتجومري ما أردت أنت فعله في البداية، ثم ...»

قلت له بحدة: «ماذا حدث للأخير ... ذلك الذي قُتل؟»

– «الواقع أنه بعد أن صممت عددًا من الكائنات البشرية، صممت كائنًا ...» ثم تردد في حديثه.

قلت: «ماذا؟»

– «قتله.»

قلت: «لا أفهم. هل تعني ...»

– «نعم، قتل ذلك الكائن الرجل، بالإضافة إلى أشياء أخرى عديدة تمكن من اصطيادها. أخذنا نلاحقه يومين. لقد صار طليقًا بالمصادفة، فلم أتعمد مطلقًا إطلاق سراحه. قُضي عليه. لم يتعد الأمر كونه تجربة. كان ذلك الشيء عديم الأطراف، وذا وجه مرعب يلف على الأرض على نحو متلوٍ. كان شديد البأس، ويعاني ألمًا رهيبًا يثير غضبه. كان يجوب الجزيرة مرحًا كما لو كان دولفينًا يسبح في البحر. ظل متربصًا في الغابة عدة أيام، ملحقًّا الأذى بكل ما يقابله إلى أن اصطدناه، ثم تمكن من الهرب متوجهًا ناحية الجزء الشمالي من الجزيرة، فقسمنا أنفسنا لنضيق الخناق عليه. أصر مونتجومري على مرافقتي. كان الرجل يحمل بندقية، وعندما عثرنا على جثته، كانت إحدى ماسورتي البندقية ملتوية وشبه مقضومة ... أطلق مونتجومري النار على ذلك الكائن ... التزمت بعد ذلك بالنموذج الإنساني الأمثل، فيما عدا بعض الأمور البسيطة.»

صَمتَ بعد ذلك، وجلست أنا أيضًا صامتًا أراقب وجهه.

– «استمر عملي مدة عشرين عامًا كاملة — من بينها تسعة أعوام في إنجلترا — ولا يزال هناك ما يهزمني، ويخيب أملي، ويتحداني لبذل المزيد من الجهد في كل شيء أفعله. في بعض الأحيان أتفوق على نفسي، وفي أحيان أخرى يكون عملي دون المستوى، لكنني دائمًا أفشل في تحقيق ما أحلم به. يمكنني الآن تصميم الشكل البشري، بسهولة على ما أعتقد، فيكون مرنًا رشيقًا، أو مكتنزًا قويًّا، لكن غالبًا ما تكون هناك مشكلة في الأيدي والمخالب، فهي من الأشياء المؤلمة التي لا أجرؤ على تشكيلها بحرية. ويستلزم على المرء أثناء عملية التطعيم وإعادة التشكيل المتقنة أن يتعامل مع المخ، وهو العضو الذي يزعجني في العمل. فيكون الذكاء غالبًا منخفض المستوى على نحو غريب، ومنطويًا

على فراغات غير مبررة، وفجوات غير متوقعة. وأكثر ما يثير استيائي شيء ما لا أتمكن من الاقتراب منه. يقع ذلك الشيء في مكان ما — لا يسعني تحديده — بمركز المشاعر، ويتمثل في الشهوات، والغرائز، والرغبات التي تضر بالجانب الإنساني للكائن؛ إنه مقدار كبير غريب خفي يدفع للانفجار فجأة، ويغمر الكيان الكامل للمخلوق؛ الغضب أو الكراهية أو الخوف. تبدو الكائنات التي أصممها غريبة وعجيبة ما إن تراها، لكنها تبدو في نظري، بعد الانتهاء من تصميمها، كائنات بشرية لا تقبل الجدل بشأنها. لكن تلك القناعة تبدأ في التلاشي عندما أراهم بعد ذلك، فتتسلل السمات الحيوانية، واحدة تلو الأخرى، إلى السطح وتحدق فيّ ... لكنني سأنتصر. في كل مرة أُغمِر فيها كائنًا حيًّا في بحر من الألم الرهيب أقول: هذه المرة سأقضي على الحيوان بالكامل، هذه المرة سأصمم كائنًا عقلانيًّا. وفي النهاية، عشرة أعوام ليست بالكثير.»

أخذ يفكر على نحو غامض، ثم قال: «لكنني قاربت الوصول إلى نتيجة حاسمة، فأنثى الكوجر تلك ...»

صمتَ، ثم استطرد: «إنهم يتحولون بعد ذلك. فما إن أرفع يدي عنهم حتى يبدأ الحيوان بداخلهم في التسلل ثانية، ويفرض نفسه عليهم ...»

ساد صمت طويل هذه المرة.

قلت: «وتأخذ بعد ذلك هذه الكائنات التي تصممها إلى تلك الأوكار؟»

– «هم من يذهبون إلى هناك. أستبعدهم عندما أشعر بظهور الحيوان بداخلهم، فيهيمون على وجوههم هناك. جميعهم يرهبون هذا المنزل، ويرهبونني. توجد صورة زائفة من الإنسانية في ذلك المكان، ويعرف مونتجومري ذلك، فهو على علم بشئونهم. لقد درب واحدًا أو اثنين منهم لخدمتنا. أعتقد أن بعضًا من هؤلاء المتوحشين يروقون له قليلًا، وإن كان يخجل من ذلك. هذا شأنه، ولا دخل لي به. الأمر الوحيد الذي يثير اشمئزازي بشأنهم هو شعوري بالفشل. لا يهمني أمرهم. أعتقد أنهم يسيرون على النهج الذي أوضحه ذلك المبشِّر الذي كان بين سكان هاواي الستة، ويحاكون الحياة العقلانية محاكاة ساخرة. يا لهم من بائسين! لديهم ما يسمونه القانون، ويغنون ترانيم عن «ذات عليا». يشيِّدون الأوكار التي يعيشون فيها، ويجمعون الفاكهة، ويقتلعون الأعشاب، بل يتزوجون أيضًا. لكن بإمكاني رؤية كل شيء بداخلهم، يمكنني رؤية نفوسهم، وأنها لا تتعدى كونها نفوس حيوانات؛ حيوانات فانية. يمكنني أن أرى الغضب والتوق الشديد للحياة وإمتاع الذات بداخلهم. لكنهم متفردون، ومعقدون، شأنهم في ذلك شأن أي

كائن حي آخر. هناك سعي دائم لتحقيق غاية سامية في نفوس تلك الكائنات، شيء من الخيلاء، من المشاعر الجنسية الغائبة، من الفضول الغائب. يتحداني ذلك الأمر بازدراء ... لكن يحدوني بعض الأمل فيما يتعلق بأنثى الكوجر؛ فقد عملت بكد على رأسها ومخها ...»

قال، وهو يهم بالوقوف، بعد فترة طويلة من الصمت قضاها كلٌّ منا مستغرقًا في أفكاره: «والآن، ما رأيك؟ هل ما زلت خائفًا مني؟»

نظرت إليه، فلم أر سوى رجل أبيض الوجه والشعر، يسكن الهدوء عينيه. ونظرًا لهدوئه، ولمسة الجمال الناتجة عن ذلك الهدوء وبنية جسمه الرائعة، يمكن أن يُعد مقبولًا وسط مائة غيره من الرجال الموسرين كبار السن. ارتجف جسمي. وكإجابة عن سؤاله الثاني قدمت له أحد المسدسين بكلتا يدي.

قال، وهو يتثاءب: «احتفظ بهما»، ثم وقف، وحدق في لحظة، وابتسم ثم قال: «لقد عشت يومين حافلين بالأحداث. أنصحك بأن تحصل على قسط من النوم. يسعدني أن الأمور قد اتضحت لك. طابت ليلتك.»

أخذ يتأملني لحظة، ثم خرج من الباب الداخلي. وأغلقت على الفور الباب الخارجي بالمفتاح.

جلست مرة أخرى، وظللت كذلك فترة من الوقت في حالة من السكون، وقد بلغت من الإنهاك العاطفي والذهني والبدني ما جعلني لا أتمكن من التفكير في أي شيء آخر بعد تركه إياي. بدت النافذة السوداء كما لو كانت عينًا تحدق فيّ. وأخيرًا، وببذل بعض المجهود، أطفأت المصباح، وصعدت إلى الأرجوحة الشبكية. لم يمض وقت طويل حتى غلبني النوم.

الفصل الخامس عشر

عن البشر الحيوانات

استيقظت مبكرًا. ومنذ لحظة استيقاظي، وتفسير مورو واضح في ذهني بلا لبس. نهضت من الأرجوحة الشبكية، وذهبت إلى الباب لأُطمئن نفسي أن الباب مغلق بالمفتاح. تحققت بعد ذلك من قضيب النافذة، ووجدته مغلقًا بإحكام. فحقيقة أن هذه المخلوقات الشبيهة بالبشر ليست سوى مسوخ حيوانية، ومحاكاة مروعة للبشر، جعلت الشكوك المبهمة تعتريني بشأن ما يمكن أن تتمتع به هذه المخلوقات من إمكانات تتجاوز في بشاعتها أي مخاوف يمكن تصورها. سمعت نقرًا على الباب، ولهجة ميلينج غير الواضحة وهو يتحدث. وضعت أحد المسدسين في جيبي (مع إبقاء يدي عليه)، ثم فتحت له.

قال، وهو يُدخل إلى الغرفة الإفطار المعتاد من الأعشاب، بالإضافة إلى أرنب ليس مطهوًّا جيدًا: «صباح الخير يا سيدي.» تبعه مونتجومري الذي وقعت عيناه — اللتان كانتا تتفقدان المكان — على موضع ذراعي، فابتسم بازدراء.

كانت أنثى الكوجر تستريح حتى تلتئم جراحها في ذلك اليوم، لكن مورو — الذي كان يميل إلى العزلة على نحو فريد — لم ينضم إلينا. تحدثت مع مونتجومري لأستوضح بعض الأمور بشأن الكيفية التي يعيش بها البشر الحيوانات. كنت متشوقًا، على وجه الخصوص، لمعرفة كيفية منع هذه المسوخ الهمجية من الانقضاض على مورو ومونتجومري، وتمزيق بعضهم بعضًا.

قال مفسرًا إن الأمان النسبي الذي كان يتمتع به هو ومورو كان نتيجة القدرة الذهنية المحدودة لهؤلاء المسوخ. فبالرغم من ذكائهم الزائد، وميل غرائزهم الحيوانية للظهور ثانيةً، فإن مورو قد زرع بعقولهم أفكارًا معينة ثابتة قيدت خيالهم تمامًا. لقد خضعوا لتنويم مغناطيسي بالفعل، وأخبرهم مورو أن أمورًا محددة تعد مستحيلة، وأمورًا أخرى يجب عدم فعلها، ونُسجت تلك المحظورات في عقولهم على نحو يتعذر

معه حدوث أي تمرد أو خلاف من جانبهم. لكن كانت هناك بعض الأمور أقل استقرارًا حيث كانت الغريزة القديمة لديهم في صراع مع مصلحة مورو، فتصارعت مجموعة من الافتراضات تُعرف باسم القانون — سمعتهم يرتلونه من قبل — في عقولهم مع نزعاتهم الثورية الراسخة النابعة من طبيعتهم الحيوانية. وهم يرددون ذلك القانون على الدوام، ويخرقونه دائمًا أيضًا، كما اكتشفت. وقد اهتم كلٌّ من مونتجومري ومورو بشكل خاص بإبعاد هؤلاء المتوحشين عن تذوق الدم، لأنهما كانا يخافان التبعات الحتمية التي ستترتب على ذلك.

أخبرني مونتجومري أن القانون يصبح أقل تأثيرًا على نحو غريب بحلول الليل، خاصةً بين الماكرين من هؤلاء المتوحشين، فبحلول الليل يصير الحيوان بداخلهم في أقوى صوره؛ فتتبدى روح المغامرة لديهم مع الغسق، وتصبح لديهم الشجاعة لفعل أمور ما كانوا ليحلموا بها قط أثناء النهار. وقد عزوت لذلك السبب مطاردة الرجل الفهد لي ليلة وصولي. لكن أثناء تلك الفترة المبكرة من إقامتي على الجزيرة خرقت تلك الكائنات القانون في الخفاء فقط وبعد حلول الظلام، في حين ساد النهار جو عام من الاحترام للمحظورات المتعددة المفروضة عليها.

يمكنني هنا عرض بعض الحقائق العامة عن الجزيرة والبشر الحيوانات. كانت الجزيرة، التي تتسم بمحيطها غير المنتظم، وتقع على سطح منخفض وسط البحر العريض، تبلغ مساحتها الإجمالية، على ما أعتقد، سبعة أو ثمانية أميال مربعة.[١] كانت جزيرة بركانية في الأصل، وصارت الآن الشعب المرجانية تحفها من ثلاث نواحٍ. تمثلت الآثار الوحيدة المتبقية للقوى التي أنشأتها في بعض الفوهات الموجودة ناحية الشمال، إلى جانب ينبوع ماء ساخن. ومن حين لآخر يمكن الشعور بهزة أرضية بسيطة، ويهيج تصاعد الدخان أحيانًا بهبَّات قوية من الدخان. هذا فيما يتعلق بالجزيرة، أما سكانها، فقد أخبرني مونتجومري أن عددهم الآن يزيد عن ستين من تلك المخلوقات الغريبة التي يصممها مورو، ذلك دون حساب المسوخ الأصغر حجمًا التي تعيش بين الشجيرات، وتبتعد في هيئتها عن الشكل البشري. لقد صمم مورو إجمالًا نحو مائة وعشرين كائنًا، لكن لقي الكثيرون منهم حتفهم، في حين شهد آخرون نهايات عنيفة، مثل الكائن المتلوي عديم الأقدام الذي أخبرني مورو عنه. وإجابة عن سؤال طرحته، قال مونتجومري إنهم كانوا يتناسلون، لكن نسلهم كان يموت عادةً. وليست هناك أي دلائل على توارث الخصائص البشرية المكتسبة. وعندما كان يعيش أيٌّ من أفراد ذلك النسل كان مورو

يأخذهم ويصبغ عليهم الطابع البشري. كانت الإناث أقل عددًا من الذكور، وعرضة للكثير من المضايقات الخفية بالرغم من أن القانون الخاص بتلك الكائنات يفرض عليها الزواج من أنثى واحدة فقط.

من المحال أن أتمكن من وصف هؤلاء البشر الحيوانات وصفًا تفصيليًّا؛ فعيناي غير معتادتين على التحقق من التفاصيل، ولا يمكنها للأسف تصويرها. ربما يكون أكثر ما يلفت النظر في هيئتهم العامة هو عدم التناسب بين أرجلهم وطول أجسامهم، لكن عيني اعتادتا تلك الهيئة، حتى إنني في نهاية الأمر اقتنعت بأن فخذي الطويلتين هما اللتان كانتا تفتقران إلى حسن المظهر، وهذا يتناسب مع مفهوم الجمال لدينا نحن البشر. من الأمور المميزة أيضًا بشأنهم امتداد رءوسهم للأمام، وانحناء العمود الفقري لديهم على نحو غير آدمي، حتى الرجل القرد نفسه افتقر أيضًا إلى ذلك التقوس المتجه للداخل في الظهر، الذي يمنح الشكل البشري طابعه الجمالي. اتسمت أكتاف معظم تلك الكائنات بالحدب القبيح، في حين كانت سواعدهم القصيرة تتدلى بوهن على جانبي أجسامهم. وقليلون منهم تميزوا بالشعر الكثيف الواضح على أجسامهم، على الأقل حتى نهاية الوقت الذي قضيته على الجزيرة.

ظهر التشوه الآخر الأكثر وضوحًا في وجوههم، فكان أغلبهم فقماء، ومشوهين عند الأذنين، وأنوفهم كبيرة وناتئة، يكسوهم الفراء أو الشعر الخشن الكثيف، ويتسمون غالبًا بعيون غريبة اللون أو الموضع. لا يمتلك أيٌّ منهم القدرة على الضحك، وإن كان الرجل القرد يضحك ضحكًا مكتومًا غير واضح. وفيما عدا تلك السمات العامة كانت الميزات المشتركة بينهم فيما يتعلق بالرأس قليلة؛ فكلٌّ منهم احتفظ بالطابع المميز لنوعه البيولوجي: فالوسمة البشرية شوهت الفهد أو الثور أو الخنزير، أو غير ذلك من الكائنات الأخرى، لكنها لم تُخفِ الحيوان الذي صُممت منه تلك الكائنات. تنوعت الأصوات أيضًا إلى حد بعيد. كانت أياديهم دائمًا مشوهة، وبالرغم من أن بعضهم قد أدهشني بطبيعة بشرية غير متوقعة، كادوا جميعًا يعانون نقصًا في عدد الأصابع، وسوء مظهر أظافرهم، إلى جانب افتقارهم لأي إدراك حسي عند اللمس.

كان أكثر هؤلاء البشر الحيوانات رعبًا الرجل الفهد الذي التقيته من قبل، ومخلوقًا آخر يجمع بين الضبع والخنزير. وكان يفوق هذين الاثنين من ناحية الحجم الكائنات الثلاثة المصممة من ثيران، التي سحبت القارب إلى الجزيرة. يلي ذلك الرجل ذو الشعر الفضي، وهو الناطق بالقانون، وميلينج، ومخلوق يشبه كائن الساتير الأسطوري نصفه

قرد ونصفه الآخر عنزة. كان هناك أيضًا ثلاثة رجال وامرأة واحدة مصممون من خنازير، ومخلوق يجمع بين الفرس ووحيد القرن، إلى جانب العديد من الإناث اللاتي لم أتحقق من أصلهنّ الحيواني. هذا إلى جانب العديد من المخلوقات المصممة من الذئاب، ومخلوق يجمع بين الدب والثور، ورجل مصمم من كلب سان برنار. لقد سبق لي وصف الرجل القرد، وكانت هناك أيضًا سيدة عجوز بغيضة للغاية (ورائحتها كريهة) مصممة من ثعلبة ودب، وقد كرهتها منذ لحظة رؤيتي لها. أما الكائنات الأصغر حجمًا، فكانت حيوانات مرقطة، بالإضافة إلى الكائن الصغير الشبيه بالكسلان الذي التقيته سابقًا. لكن لنكتفِ بهذا القدر من الوصف!

في بادئ الأمر كنت أرتعد خوفًا من هؤلاء المسوخ، فكان يراودني شعور قوي بأنهم لا يزالون حيوانات، لكنني اعتدت عليهم قليلًا بعد ذلك دون وعي مني، هذا إلى جانب تأثري بموقف مونتجومري منهم، فقد رافقهم فترة طويلة جعلته يراهم كائنات بشرية طبيعية، وبدت الأيام التي قضاها في لندن ماضيًا رائعًا يستحيل تكراره في نظره. إنه يذهب مرة واحدة كل عام تقريبًا إلى أريكا للتداول مع وكيل مورو، وهو تاجر حيوانات يعمل هناك. ومن ثم، كاد مونتجومري لا يلتقي بشرًا أكثر رقيًّا من سكان تلك القرية ذوي الأصل الإسباني الهجين الذين يمتهنون العمل البحري. وقد أخبرني أن الرجال الذين كانوا على متن السفينة بدوا له في بادئ الأمر على القدر نفسه من الغرابة التي رأيت أنا بها البشر الحيوانات؛ كانت أرجلهم طويلة على نحو غير طبيعي، ووجوههم مسطحة، وجباههم بارزة، وكانوا مريبين، وخطرين، وقساة القلوب. الحقيقة أنه لم يكن يحب البشر، وكان يرى أن قلبه قد رقَّ لي لإنقاذه حياتي.

بل إنني تصورت أيضًا أنه يكنّ شعورًا خفيًّا بالحنو نحو بعض هذه الحيوانات المتحولة، وتعاطفًا آثمًا مع بعض أساليبهم، لكنه حاول إخفاء ذلك عني في البداية.

لم يكن ميلينج — رفيق مونتجومري ذو البشرة السمراء وأول من قابلته من هؤلاء البشر الحيوانات — يعيش مع الآخرين في الجانب الآخر من الجزيرة، بل في بيت صغير كبيت الكلب في الجزء الخلفي من المنطقة المسيجة. بالكاد كان يضاهي الرجل القرد في ذكائه، لكنه كان أكثر خضوعًا، وتشابهًا مع البشر مقارنةً بجميع البشر الحيوانات الآخرين. وقد دربه مونتجومري على إعداد الطعام، وبالطبع أداء جميع المهام المنزلية البسيطة اللازمة. كان ذلك المخلوق انتصارًا معقدًا لمهارة مورو المروعة؛ فكان دُبًّا يحمل بعض سمات الكلب والثور، وأحد أكثر الكائنات التي صممها مورو إتقانًا. كان يتعامل

مع مونتجومري برقة وتفانٍ غريبين، فأحيانًا كان مونتجومري يوليه اهتمامًا، ويربت عليه، ويناديه بأسماء تحمل شيئًا من المزاح والسخرية في الوقت ذاته، فيجعله يثب من السعادة الغامرة، وفي أحيان أخرى يسيء معاملته، خاصةً عندما يكون تحت تأثير الويسكي، فيركله، ويضربه، ويرشقه بالحجارة أو الصمامات الكهربائية المشتعلة. لكن سواء أساء مونتجومري معاملة ميلينج أو أحسنها، كان ميلينج لا يفضل شيئًا على البقاء بالقرب من مونتجومري.

سبق أن ذكرت أنني اعتدت تلك الحيوانات الآدمية، فسرعان ما صار الكثير من الأمور — التي بدت لي في بادئ الأمر غير طبيعية ومقيتة — طبيعية واعتيادية في نظري. أعتقد أن كل شيء في ذلك الوجود يستمد طابعه من المظهر العام للبيئة المحيطة به؛ فكانت شخصيتا مونتجومري ومورو متميزتين ومتفردتين على نحو كبير، وجعل هذا انطباعاتي العامة عن الطبيعة البشرية تلتبس في ذهني، فكنت عندما أرى واحدًا من هؤلاء البشر الثيران الذين جذبوا القارب إلى الجزيرة، وهو يمشي متثاقلًا بين الشجيرات الصغيرة، أتساءل محاولًا بكد تذكر وجه الاختلاف بينه وبين الفلاحين من البشر أثناء عودتهم مجهدين إلى منازلهم بعد أدائهم لمهامهم الشاقة. وكنت عندما ألقى الوجه الخبيث المراوغ للمرأة التي تحمل سمات الثعلب والدب، كنت أراه بشريًّا على نحو غريب فيما يعكسه من دهاء ومكر، بل إنني كنت أتخيل أيضًا أنني قد قابلتها من قبل في إحدى الطرق الجانبية بالمدينة.

لكن من حين لآخر كان الحيوان يظهر فجأة أمامي دون أي مجال للشك أو الإنكار. وذلك عندما أرى مثلًا رجلًا قبيحًا، إنسانًا متوحشًا محدبًا يجثم في مدخل أحد الأوكار، باسطًا ذراعيه ويتثاءب، مُظهرًا على نحو مباغت أسنانًا قاطعة بحواف تشبه المقص وأنيابًا تشبه السيف؛ أسنانًا وأنيابًا حادة ولامعة كالسكاكين. أو عندما أنظر بجرأة عابرة أثناء عبوري في أحد الممرات في عيون أنثى رشيقة مضمدة بأربطة بيضاء، أرى فجأة (بنفور انفعالي) أن حدقتي عينيها تشبهان شقين طوليين، أو ألاحظ عند التحديق لأسفل ظُفرها المتقوس الذي تحمل به الأربطة عديمة الشكل التي كانت تغطيها. وبالمناسبة، من الأمور المثيرة للاهتمام، التي لا يمكنني تفسيرها، أن تلك الكائنات الغريبة — أعني الإناث منها — كان لديهن في الفترة الأولى من إقامتي على الجزيرة حس فطري بقبحهن المنفر، ومن ثم كنّ يظهرن مزيدًا من الاهتمام البشري بالكياسة والذوق في ملابسهن الخارجية.

هوامش

(١) يتطابق هذا الوصف مع جزيرة نوبل من جميع النواحي. «تشارلز إدوارد برينديك».

الفصل السادس عشر

البشر الحيوانات يتذوقون الدماء

افتقاري للخبرة ككاتب جعلني أبتعد عن مسار الأحداث في قصتي. بعد تناولنا لوجبة الإفطار اصطحبني مونتجومري إلى الجانب الآخر من الجزيرة لتفقد فوهة البركان ومصدر ينبوع المياه الساخنة الذي خضت مياهه شديدة السخونة متخبطًا في ذلك اليوم المنصرم. كان كلانا يحمل سوطًا ومسدسًا محشوًّا بالأعيرة النارية. أثناء مرورنا عبر أجمة كثيفة الأوراق في طريقنا إلى هناك، سمعنا أرنبًا يصرخ صراخًا طويلًا حادًّا. توقفنا، وأنصتنا، لكننا لم نسمع شيئًا آخر، فواصلنا السير في الحال، ونسينا الأمر. لفت مونتجومري نظري إلى بعض الحيوانات الصغيرة وردية اللون ذات قوائم خلفية طويلة تثب بين الشجيرات. وأخبرني أنها كائنات من نسل البشر الحيوانات الذين صممهم مورو. كان مونتجومري يعتقد أنه يمكن استغلالها مصدرًا للحوم، لكن افتراسها لصغارها مثل الأرانب أحبط تلك الفكرة. لقد التقيت بالفعل بعضًا من هذه المخلوقات؛ مرة أثناء هروبي في الليلة المقمرة من الرجل الفهد، ومرة أخرى أثناء ملاحقة مورو لي في ذلك اليوم المنصرم. وبالمصادفة، دخل أحد تلك المخلوقات أثناء وثبه لكي يتجنبنا في حفرة ناتجة عن اجتثاث شجرة عصفت بها الرياح. وقبل أن يتمكن من تخليص نفسه تمكنا من الإمساك به. أخذ يتشاحن مثل القطط، ويخربش ويرفس بقوائمه الخلفية على نحو عنيف، لكن أسنانه كانت ضعيفة حتى إنها ما كانت لتسبب سوى لدغة غير مؤلمة. بدا لي مخلوقًا صغيرًا جذابًا، ونظرًا لما قاله مونتجومري عنه أنه لا يتسبب أبدًا في تلف الأعشاب عند حفره للجحور التي يعيش فيها، هذا فضلًا عن كونه نظيفًا للغاية في عاداته، اعتقدت أنه يمكن أن يكون بديلًا مناسبًا للأرنب العادي الذي يعيش في حدائق البشر.

رأينا أيضًا في طريقنا جذع شجرة منزوعًا عنه اللحاء في شكل شرائط طويلة ومتكسرًا إلى شظايا بداخله. لفت مونتجومري انتباهي لذلك، وقال: «محظور تمزيق لحاء الأشجار بالمخالب؛ هذا هو القانون. يلتزم الكثيرون منهم حقًّا بذلك القانون!» بعد ذلك، على ما أظن، التقينا بالساتير والرجل القرد. كان الساتير تجسيدًا لذكرى كلاسيكية وردت على ذهن مورو، فكان يشبه الغنم في تعبيرات وجهه، وصوته ثغاء أجش، وأطرافه السفلية خبيثة المظهر. كان يقضم في قشرة ثمرة تشبه قرن الفول أثناء مروره بنا. ألقى كلاهما التحية على مونتجومري.

قالا: «مرحبًا بالآخر حامل السوط!»

قال مونتجومري: «هناك شخص ثالث الآن يحمل سوطًا، لذا يتوجب عليكما توخي الحذر!»

قال الرجل القرد: «أليس مصممًا؟ لقد قال … قال إنه مصمم.»

تفحصني الرجل الساتير بعناية، وقال: «هذا الرجل الثالث ذو السوط، الذي يخوض أمواج البحر باكيًا، له وجه أبيض رفيع.»

قال مونتجومري: «إن معه سوطًا طويلًا رفيعًا.»

قال الساتير: «بالأمس، كان ينزف ويبكي. أنت لا تنزف ولا تبكي أبدًا، وكذلك السيد.»

رد مونتجومري: «أيها المتسول المصطنع! من سينزف ويبكي هو أنت إذا لم تحترس في حديثك.»

قال الرجل القرد: «إن لديه خمسة أصابع؛ إنه رجل ذو خمسة أصابع مثلي.»

قال مونتجومري ممسكًا بذراعي: «هيا يا بريnديك، تعال معي!» فذهبت معه.

وقف الساتير والرجل القرد يراقباننا، ويتبادلان التعليقات الأخرى فيما بينهما.

قال الساتير: «إنه لا يتكلم، والبشر لهم أصوات.»

رد الرجل القرد: «لقد طلب مني بالأمس طعامًا، فهو لا يعرف.» ثم أخذا يتحدثان بكلام غير مسموع، وسمعت الساتير بعد ذلك يضحك.

وفي طريق عودتنا عثرنا على الأرنب المقتول. كان الجسد الأحمر لذلك الكائن البائس الصغير ممزقًا إربًا، والكثير من الأضلاع منزوع عنها اللحم تمامًا، والعمود الفقري مقضوم دون شك.

توقف مونتجومري عند الأرنب، وقال: «يا إلهي!» وهو ينحني لأسفل ويلتقط بعض الفقرات المحطمة ليفحصها عن كثب. كرر قوله: «يا إلهي! ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك؟»

جاء ردي بعد فترة قصيرة من الصمت: «واحد من تلك الحيوانات آكلة اللحوم، التي تحتفظان بها، تذكرَ عاداته القديمة. لقد تعرض هذا العمود الفقري بأكمله للافتراس.»

وقف محدقًا، وقد شحب وجهه، وتدلت شفته بانحراف. وقال بتروٍّ: «هذا الأمر لا يريحني.»

قلت له: «لقد رأيت شيئًا مماثلًا أول يوم أتيت فيه إلى هنا.»

– «اللعنة! حقًّا؟ وماذا كان؟»

– «كان أرنبًا منزوع الرأس.»

– «يوم أتيت إلى هنا؟»

– «نعم، يوم أتيت إلى هنا. كان ملقًى بين الشجيرات خلف المنطقة المسيجة، ورأيته عندما خرجت ذلك المساء. كان الرأس مهشمًا تمامًا.

أصدر صوت صفير خفيض طويل: «بل إن لدي فكرة أيضًا عن المتوحش الذي ارتكب تلك الفعلة. إنه مجرد شك، فقبل أن أعثر على الأرنب رأيت واحدًا من تلك المسوخ التي صممناها يشرب من النهير.»

– «أكان يمص ما يشربه؟»

– «نعم.»

– «محظور امتصاص المشروبات بالفم؛ هذا هو القانون. يلتزم الكثيرون منهم حقًّا بذلك القانون، أليس كذلك؟ خاصةً عندما لا يكون مورو موجودًا.»

– «كان هو نفسه المتوحش الذي لاحقني.»

قال مونتجومري: «بالطبع، فمن سمات آكلي اللحوم أنهم يشربون بعد قتل ضحاياهم. إنه مذاق الدم، كما تعلم.»

سألني: «كيف كان يبدو ذلك المتوحش؟ هل يمكنك التعرف عليه لو رأيته ثانيةً؟» ألقى نظرة خاطفة على المكان من حولنا، وهو يقف منفرج الساقين على أشلاء الأرنب الميت. كانت عيناه تتفقدان الظلال السواتر الخضراء، ومكامن الغابة ومخابئها التي تحيط بنا. وكرر قوله: «إنه مذاق الدم.»

أخرج مسدسه، وفحص الخراطيش الموجودة فيه، ثم أعاده إلى مكانه، وسحب شفته المتدلية للداخل ثانيةً.

«أعتقد أن بإمكاني التعرف على ذلك المتوحش عند رؤيته. لقد أفقدته صوابه، ومن المفترض أن تكون لديه كدمة واضحة على جبهته.»

قال مونتجومري: «لكن سيجب علينا حينئذٍ إثبات أنه قتل الأرنب. كم أتمنى لو أنني لم أحضر تلك الأشياء إلى هنا قط.»

واصلت المسير، لكنه ظل واقفًا في ذلك المكان يتأمل الأرنب المُمَثَّل به في حيرة. وفي أثناء ذلك وصلت إلى حيث كانت بقايا الأرنب الأول.

ناديت عليه: «تعال إلى هنا!»

استفاق في الحال، وتوجه نحوي. قال في صوت أقرب إلى الهمس: «أترى؟ من المفترض أن لديهم جميعًا فكرة ثابتة ضد أكل أي شيء يجري على الأرض. إذا تذوق أحد المتوحشين الدماء بالمصادفة، فسوف …»

تابعنا السير بعض الوقت في صمت، ثم تحدث مونتجومري إلى نفسه: «أتساءل ما يمكن أن يكون قد حدث؟» صمت مرة أخرى لبرهة، وقال: «لقد ارتكبت حماقة في أحد الأيام الماضية؛ فشرحت لخادمي كيفية سلخ الأرانب وطهوها … وقد رأيته يلعق يديه … لم يسبق أن حدث لي ذلك من قبل.»

استطرد مونتجومري: «لا بد أن نضع حدًّا لذلك. يجب عليّ إخبار مورو.»

لم يستطع التفكير في أي شيء آخر طوال طريق عودتنا.

أخذ مورو الأمر على محمل الجد أكثر من مونتجومري، ومن نافلة القول أن أقول إنني قد تأثرت بالذعر الذي بدا عليهما بوضوح.

قال مورو: «يجب أن نعاقب الجاني ليتعظ الباقون.»

– «ليس لديّ أدنى شك في أن الرجل الفهد هو الجاني. لكن كيف يمكننا إثبات ذلك؟ ليتك ما أطلعت أحدًا يا مونتجومري على اللحم الذي تتناوله. فما كنا لنتعرض لتلك المستجدات المثيرة. لقد أوقعنا أنفسنا في مأزق الآن.»

قال مونتجومري: «كنت أحمق حقًّا، لكن ما حدث قد حدث. وقد قلت من قبل إن بإمكاني تناول هذه الأرانب.»

رد مورو: «يجب أن نلقي نظرة على ذلك الأرنب في الحال. أعتقد أنه لو حدث أي شيء يمكن لميلينج أن يتدبر أمره.»

قال مونتجومري: «لست واثقًا إلى هذا الحد من ميلينج. أعتقد أنه كان يجدر بي معرفته على نحو أفضل.»

بعد الظهر ذهبت أنا ومورو ومونتجومري وميلينج إلى الأكواخ الموجودة في الوادي بالجانب الآخر من الجزيرة. كنا نحن الثلاثة مسلحين، في حين حمل ميلينج بلطة صغيرة كان يستخدمها في تقطيع الحطب، وبعض الأسلاك الملفوفة. حمل مورو بوقًا ضخمًا من أبواق رعاة البقر فوق كتفه. قال مونتجومري: «سترى جمعًا من البشر الحيوانات. ويا له من مشهد!» لم ينطق مورو بكلمة طوال الطريق، لكن بدا التكدر على وجهه الضخم المحاط بالشعر الأبيض.

تجاوزنا الوادي الذي كان يجري عبره نهير المياه الساخنة الذي تتصاعد منه الأدخنة، وسرنا في الطريق المتعرج بين أجمة الخيزران حتى وصلنا إلى منطقة واسعة مغطاة بمادة سميكة صفراء ناعمة، أظن أنها الكبريت. لاح البحر في الأفق من فوق ضفة النهير كثيفة الأعشاب. وصلنا بعد ذلك إلى مدرج طبيعي قليل العمق، فتوقفنا نحن الأربعة. نفخ مورو في البوق، فقطع الصمت الذي خيم على ذلك المكان الاستوائي في فترة ما بعد الظهر. كان يتمتع بلا شك برئتين قويتين، فقد أخذ صوت البوق يعلو أكثر فأكثر وسط الصدى الناتج عنه حتى وصل في النهاية إلى درجة من الشدة تخترق الآذان. قال مورو: «ها هم»، وأنزل البوق إلى جانبه ثانيةً.

سمعنا في الحال أصوات ارتطام بين الخيزران أصفر اللون، وأصوات كائنات بين الأجمة الخضراء الكثيفة التي كانت تحيط بالمستنقع الذي خضته ركضًا في اليوم السابق. ظهر بعد ذلك البشر الحيوانات بهيئاتهم القبيحة في ثلاث أو أربع مناطق على حواف المنطقة المغطاة بالكبريت، كانوا يهرعون نحونا. لم يسعني التحكم في الذعر الذي تسلل إلى نفسي عند إبصاري تلك المخلوقات، وهي تهرول، واحدًا تلو الآخر، من بين الأشجار أو أعواد الخيزران، ثم تمشي بتثاقل نحونا فوق الرماد الساخن. لكن مورو ومونتجومري وقفا بهدوء، ولزمت أنا جانبهما بحكم الضرورة. كان الساتير أول من وصل إلينا، بدا غير طبيعي على نحو غريب، فقد ألقى بظله على المكان، وقلَّب الرماد بحوافره؛ تبعه من بين الأجمة أخرق بشع الخلقة يجمع بين الحصان ووحيد القرن، كان يمضغ قشًّا أثناء توجهه نحونا. ظهرت بعد ذلك المرأة الخنزيرة، وامرأتان ذئبتان، ثم العجوز القبيحة التي تجمع بين الثعلب والدب بعينيها الحمراوين ووجهها الأحمر الشاحب، ومن بعدها آخرون يهرعون جميعًا في حماس. وأثناء تقدمهم نحونا أخذوا يتذللون في خنوع أمام مورو، ويغنون دون تناغم مقاطع من الجزء الثاني من ترتيلة القانون الخاص بهم: «يده هي التي تجرح، يده هي التي تداوي»، وما إلى ذلك.

ما إن اقتربوا، وصاروا على مسافة نحو ثلاثين مترًا، توقفوا. وأخذوا يقذفون بالرمل الأبيض فوق رءوسهم، وهم متخذون وضع السجود. حاول تخيل المشهد: ثلاثة رجال يرتدون ملابس زرقاء، ومعهم مُرافقهم المشوه ذو الوجه الأسود، يقفون في رقعة واسعة يغطيها الرماد الأصفر الذي تنعكس عليه أشعة الشمس تحت السماء الزرقاء المتوهجة، ومحاطون بهذه الدائرة من المسوخ الجاثمة على الأرض مؤدية تلك الحركات. بدا بعضهم شبيهًا بالبشر إلى حد بعيد، فيما عدا ما يتعلق بالتعبيرات والإيماءات الماكرة، وبعضهم مثل الكسحاء، في حين وصل آخرون في درجة تشوههم إلى الحد الذي أصبحوا لا يشبهون معه أي شيء سوى ما نراه في أكثر أحلامنا جموحًا. ومن وراء ذلك تمتد صفوف كثيفة من قصب الخيزران في أحد الجوانب، ومجموعة كثيفة متداخلة من أشجار النخيل بجانب آخر، لتفصلنا عن الوادي وما به من أكواخ. أما في الشمال، فيمتد المحيط الهادئ في الأفق الغائم.

أخذ مورو يحصي: «اثنان وستون، ثلاثة وستون ... هناك أربعة غير موجودين.»

قلت: «لا أرى الرجل الفهد.»

نفخ مورو على الفور في البوق الضخم، وتلوى البشر الحيوانات ثانية عند سماعهم له، وتمرغوا في التراب. بعد ذلك حضر الرجل الفهد من خلف مورو، متسللًا من بين قصب الخيزران، ومائلًا نحو الأرض، محاولًا الانضمام لمجموعة الكائنات التي تتمرغ في التراب. لاحظت وجود كدمة بجبهته. كان الرجل القرد صغير الحجم آخر من حضر من البشر الحيوانات. رمقته الحيوانات التي سبقته — التي أثارها وأنهكها التمرغ في التراب — بنظرات قاسية.

قال مورو، بصوته العالي الحازم: «كفى!» فرجع البشر الحيوانات للوراء ليجلسوا على ركبهم، وتوقفوا عن تعبدهم.

سأل مورو: «أين الناطق بالقانون؟» فنكس الوحش الرمادي كثيف الشعر وجهه في التراب.

قال مورو: «لتقل الكلمات»، وأخذ الجميع يتغنون بترتيلهم الغريب مرة أخرى، وهم يجثمون على الأرض، ويتمايلون من جانب لآخر، ويتقاذفون الكبريت بأيديهم، رافعين يدهم اليمنى أولًا وبها نفحة من التراب، ثم اليسرى.

وعندما وصلوا إلى: «محظور تناول اللحم أو السمك؛ هذا هو القانون»، رفع مورو يده البيضاء الهزيلة، وصاح: «كفى!» فخيم الصمت المطبق على الجميع.

أعتقد أنهم كانوا جميعًا على علم بما سيحدث، ويخافونه. نظرت حولي في وجوههم الغريبة. وعندما أبصرت مفاجأتهم والخوف الكامن في عيونهم اللامعة، بدأت أتساءل كيف ظننت من قبل أنهم بشر.

قال مورو: «لقد خُرق هذا القانون.»

رد الكائن عديم الوجه ذو الشعر الفضي: «لا أحد يهرب.» وكرر ذلك من ورائه البشر الحيوانات الجاثمون على الأرض.

صاح مورو: «من هو؟» ونظر حوله في وجوههم، وهو يضرب بسوطه في الهواء. أعتقد أن الضبع الخنزير بدا مغمومًا، وكذلك الرجل الفهد. توقف مورو، مواجهًا هذا المخلوق الذي تصاغر أمامه وقد ملأت ذهنه ذكريات الذعر والألم اللامتناهي. كرر مورو بصوت مدوٍّ: «من هو؟»

ترنَّم الناطق بالقانون: «الآثم هو من يخرق القانون.»

نظر مورو في عيني الرجل الفهد، وبدا كما لو كان يستشف دخائل نفسه.

قال مورو مبتعدًا بنظره عن ضحيته ومستديرًا ناحيتنا: «من يخرق القانون ...» بدا لي أن صوته يشوبه بعض الابتهاج.

صاحوا جميعًا: «... يعود إلى دار الألم ... يعود إلى دار الألم، أيها السيد!»

ردد الرجل القرد، كما لو أن الفكرة قد طابت له: «يعود إلى دار الألم ... إلى دار الألم.»

قال مورو، مستديرًا نحو المجرم: «هل تسمع؟ ... أنت!»

بعد أن أبعد مورو نظره عنه نهض الرجل الفهد ليقف مستقيمًا على ركبتيه، وعيناه تقدحان بالشرر، وأنيابه السنورية الضخمة تلمع من تحت شفتيه المتجعدتين. قفز نحو معذبه. كنت موقنًا أن الجنون الناتج عن الخوف غير المحتمل هو ما دفع إلى ذلك الهجوم. بدا لي أن الوحوش الستين جميعهم المحيطين بنا قد نهضوا من حولنا؛ فأخرجت مسدسي. اصطدم الرجل الفهد بمورو، وأبصرت مورو يترنح للخلف إثر لكمة الرجل الفهد له. اشتد الصياح والعواء من حولنا، وأسرع الجميع في حركته. ظننت لحظة أنه عصيان عام.

مر وجه الرجل الفهد الغاضب سريعًا أمام وجهي أثناء ملاحقة ميلينج له، فأبصرت عيني الرجل الضبع الخنزير الصفراوين تتوهجان بالحماس، وبدا من الوضع الذي اتخذه أنه كاد يكون قد عقد العزم على مهاجمتي. حدق الساتير أيضًا فيّ من وراء كتفي الرجل

الضبع الخنزير الحدباوين. سمعت صوت إطلاق الرصاص من مسدس مورو، ورأيت الوميض الوردي ينطلق بين الجمع المضطرب. استدار الجميع في اتجاه وميض النار، وتبعتهم أنا أيضًا لاإراديًّا. وفي غضون ثوانٍ ركضت بين الحشد المضطرب عالي الصيحات ملاحقًا الرجل الفهد الذي كان يحاول الفرار.

هذا كل ما يمكنني وصفه بوضوح، فقد رأيت الرجل الفهد يضرب مورو، ثم بدأ كل شيء يدور من حولي، إلى أن أخذت أركض سريعًا.

كان ميلينج في المقدمة، وعلى مسافة أقرب من الهارب. وفي الخلف كانت الإناث الذئبات يركضن بخطى واسعة واثبة، وألسنتهن متدلية. وتبعهن البشر الخنازير يصيحون في حماس، وكذلك الرجلان الثوران المضمدان بأربطة بيضاء. جاء بعد ذلك مورو محاطًا بمجموعة من البشر الحيوانات، وممسكًا بمسدسه في يده، وقد طارت من فوق رأسه قبعته القشية ذات الحواف العريضة، فانسدل شعره الأبيض الخفيف المسترسل. ركض الرجل الضبع الخنزير بجانبي، ملاحقًا إياي خطوة بخطوة، ومحدقًا فيّ خفية بعينيه الماكرتين. وجاء الآخرون خلفنا وهم يدمدمون ويصيحون.

انطلق الرجل الفهد بين أشجار الخيزران الطويلة التي ارتدت عند مروره بها لترتطم بوجه ميلينج. أما نحن، الذين كنا نركض خلفهما، فقد وجدنا طريقًا سبق وطؤه من قبل عند وصولنا إلى الأجمة. استمرت المطاردة عبر الأجمة مسافة نحو ربع ميل، اندفعنا بعد ذلك بين أحراش كثيفة أعاقت حركتنا إلى حد بعيد — مع أننا قد دخلناها معًا محتشدين — فكانت الأوراق تسفع وجوهنا، والنباتات المتسلقة خيطية الشكل تصل إلى أذقاننا أو تمسك بكواحلنا، والنباتات الشائكة تتعلق بنا، فتمزق كلًّا من ملابسنا وأجسادنا.

تحدث مورو لاهثًا، وكان قد وصل آنذاك أمامي مباشرةً: «لقد سار على أطرافه الأربعة طوال هذه المطاردة.»

قال الرجل الذئب الدب، ضاحكًا في وجهي من أثر ابتهاجه بالصيد: «لا أحد يهرب.»

انطلقنا ثانيةً بين الصخور، ورأينا طريدنا أمامنا راكضًا بخفة على أطرافه الأربعة، وهو ينظر خلفه نحونا مزمجرًا. وعند رؤية البشر الذئاب لذلك عووا بابتهاج. وبالرغم من ارتداء ذلك الكائن الملابس، ووجهه الذي بدا بشريًّا من بعيد، فإن سيره على أربع جعله شبيهًا بالقطط. هذا فضلًا عن أن التدلي الماكر لكتفه كان سمة واضحة لحيوان مطارد. قفز فوق بعض الشجيرات الشائكة ذات الزهور الصفراء، وتوارى عن الأنظار. كان ميلينج على بعد نصف المسافة بيننا وبين الطريد.

لم يعد معظمنا يركض بالقدر نفسه من السرعة التي بدأنا بها المطاردة، وصرنا نسير بخطى أكثر اتساعًا وثباتًا. ولاحظت عند تجاوزنا المنطقة المكشوفة أن المطاردين انتشروا ليصير بعضهم بجانب بعض بعد أن كانوا يركضون بعضهم خلف بعض. كان الرجل الضبع الخنزير لا يزال يركض بالقرب مني، مراقبًا إياي بين الحين والآخر أثناء ركضه، ثم مغضِّنًا خطمه وهو يضحك بدمدمة.

وعند حافة الصخور انعطف الرجل الفهد فجأة بين الشجيرات المتشابكة، بعد أن أدرك أنه يتجه نحو اللسان البارز في البحر، الذي تعقبني عليه ليلة وصولي. لكن مونتجومري لاحظ تلك المناورة، وجعله يستدير مرة أخرى.

وهكذا ساعدت في ملاحقة الرجل الفهد، الذي خرق القانون، بركضي لاهثًا ومتعثرًا في الصخور، وجسدي ممزق من علائق النباتات، والقصب والسرخس يعترضان سبيلي. وكان الرجل الضبع الخنزير يركض بجواري مطلقًا ضحكات بربرية. تابعت المسير مترنحًا، ورأسي متمايل، وقلبي ينبض بقوة شديدة حتى شعرت أنني أكاد أموت. لكنني ما كنت لأجرؤ على ترك المطاردة، خوفًا من أن أُترك وحيدًا مع ذلك الرفيق المرعب. أخذت أترنح للأمام برغم الإرهاق الشديد والحرارة المفرطة لتلك المنطقة الاستوائية في فترة ما بعد الظهيرة.

وفي النهاية خفت وطأة المطاردة، وحاصرنا ذلك البائس في أحد جوانب الجزيرة. كان مورو يقودونا جميعًا في خط غير منتظم ممسكًا السوط في يده. تقدمنا حينذاك ببطء، يصيح كلٌّ منا في الآخر أثناء تقدمنا، ونحن نضيق الحصار على ضحيتنا. أخذ ينسل دون أن يحدث صوتًا أو يراه أحد في الأحراش التي فررت عبرها أثناء ملاحقته لي في تلك الليلة المنصرمة.

صاح مورو: «ثبات! ثبات!» عند زحف الواقفين بنهاية الخط حول مجموعة الشجيرات المتشابكة، وحصارهم للحيوان المُطارد داخلها.

جاء صوت مونتجومري من وراء الأجمة: «احذروا حامل المسمار.»

كنت واقفًا على المنحدر فوق الأجمة، في حين ركض مونتجومري ومورو على الشاطئ في الأسفل. شققنا طريقنا ببطء وسط الفروع والأوراق المتشابكة، وكان طريدنا صامتًا.

صاح الرجل القرد بصوت كالعواء، وهو على بعد نحو عشرين مترًا ناحية اليمين: «يعود إلى دار الألم ... إلى دار الألم ... إلى دار الألم!»

عندما سمعت ذلك غفرت لذلك البائس المسكين كل الخوف الذي أثاره بداخلي.

سمعت صوت تهشم الأغصان الصغيرة، وحفيف تحرك الأفرع الكبيرة جانبًا أمام الكائن الذي كان يجمع بين الفرس ووحيد القرن، ويخطو بخطى بطيئة عن يميني. وفجأة رأيت المخلوق الذي كنا نطارده عبر مضلع من النباتات الخضراء في المكان شبه المظلم تحت النباتات الكثيفة. توقفت. كان جاثمًا في أصغر مساحة ممكنة، وعيناه الخضراوان اللامعتان استدارتا للنظر نحوي.

قد يبدو الأمر تناقضًا غريبًا بداخلي — ولا يمكنني في الواقع تفسيره — لكن في تلك اللحظة عند رؤيتي لذلك المخلوق بوضعية جسمه الحيوانية تمامًا، والضوء يبرق في عينيه، ووجهه البشري المعيب الذي شوهه الذعر، أدركت من جديد حقيقة طبيعته البشرية. في غضون لحظات سيراه أحد ملاحقيه، وسيتغلب عليه، ويأسره ليلقى مجددًا صور العذاب الرهيب داخل المنطقة المسيجة. أخرجت مسدسي فجأة، وصوبت بين عينيه المذعورتين، وأطلقت النار.

وعند قيامي بذلك رأى الرجل الضبع الخنزير ذلك المخلوق، فاندفع بقوة فوقه مطلقًا صيحة حماس، ومغرزًا أسنانه العطشى في رقبته. كانت جميع النباتات الخضراء بالأجمة الموجودة أمامي تتمايل وتتهشم مع قدوم البشر الحيوانات مسرعين معًا. وأخذ وجه كل منهم يظهر، واحدًا تلو الآخر.

صاح مورو: «لا تقتله، يا بريندي ك! لا تقتله!» ورأيته ينحني عند مروره تحت أوراق السرخس الكبيرة.

وفي لمح البصر رد الرجل الضبع الخنزير بقوة باستخدام مقبض سوطه، في حين كان يُبعد — هو ومونتجومري — البشر الحيوانات آكلي اللحم المهتاجين، وخاصةً ميلينج، عن الجسد المرتعش الراقد بلا حراك. جاء الكائن كثيف الشعر ذو البشرة الرمادية يتشمم الجثة الموجودة تحت ذراعي. دفعتني الحيوانات الأخرى، بحماسها الحيواني، للحصول على نظرة عن قرب.

قال مورو: «عليك اللعنة يا بريندي ك! لقد قتلته.»

رددت عليه: «آسف!» وإن لم أكن كذلك. واستطردت: «كان اندفاعًا مني.» كنت أشعر بالاعتلال من أثر الإجهاد والانفعال. استدرت، وشققت طريقي وسط البشر الحيوانات المحتشدين، وتابعت المسير وحدي صاعدًا المنحدر باتجاه الجزء العلوي من اللسان. وعند صياح مورو مصدرًا الأوامر سمعت الرجال الثيران الثلاثة المضمدين بالأربطة البيضاء يأخذون في سحب الضحية إلى أسفل باتجاه الماء.

أصبح من اليسير آنذاك أن أبقى بمفردي. أظهر البشر الحيوانات فضولًا إنسانيًّا تمامًا بشأن الجثة، ولحقوا بها في زمرة كبيرة، وهم يتشممونها ويزمجرون تجاهها أثناء سحب الرجال الثيران لها نحو الشاطئ. توجهت إلى اللسان، وشاهدت الرجال الثيران — الذين بدوا كظلال سوداء في مواجهة سماء المساء — أثناء حملهم للجثة تجاه البحر. أدركت فجأة العبثية المفزعة للأشياء الموجودة على الجزيرة. وعلى الشاطئ، بين الصخور الموجودة أسفلي، وقف الرجل القرد، والرجل الضبع الخنزير، والعديد من البشر الحيوانات الآخرين، حول مونتجومري ومورو. كانوا جميعًا لا يزالون منفعلين بشدة، وتغمرهم كافة تعبيرات الولاء للقانون. لكنني كنت متيقنًا تمام اليقين أن الرجل الضبع الخنزير كان متورطًا في قتل الأرنب. وشعرت بقناعة غريبة — بعيدًا عن الفظاظة التي بدا عليها الواقفون في الطابور، وغرابة هيئتهم — أن أمامي صورة مصغرة للتوازن الكامل للحياة البشرية؛ التفاعل الكامل بين الغريزة والعقل والقدر، في أبسط صوره. لقد هُزم الرجل الفهد، وكان هذا هو الفارق الوحيد.

يا للحيوانات المسكينة! بدأت أرى آنذاك الجانب الوضيع لقسوة مورو. لم أفكر من قبل في الألم والمعاناة اللذين لاقاهما هؤلاء الضحايا المساكين بعد ترك مورو لهم. كنت أرتعد خوفًا فقط عند التفكير في التعذيب الفعلي داخل المنطقة المسيجة. أما الآن، فيبدو ذلك الجانب الأهون. لقد كانوا في السابق حيوانات، وكانت غرائزهم تتلاءم بحق مع البيئة المحيطة بهم، وكانوا يشعرون بالسعادة كما يُفترض بجميع الكائنات الحية. أما الآن، فقد تعثروا في أغلال الطبيعة البشرية، وعاشوا في خوف لا نهاية له، يقلق راحتهم قانون لا يمكنهم فهمه؛ بدأ كيانهم البشري الزائف بألم مبرح، وكان صراعًا داخليًّا طويلًا، ورهبة متواصلة من مورو، وما الهدف من وراء كل ذلك؟ لقد كانت عبثية الأمر برمته هي ما يثير حفيظتي.

لو كان لدى مورو أي هدف مفهوم لتعاطفت معه على الأقل بعض التعاطف، فلست شديد الحساسية تجاه الألم في حد ذاته، ولكنت أيضًا سأغفر له قليلًا مما يفعله إن كانت الكراهية دافعه. لكنه كان يفتقر لأي حس بالمسئولية، وغير مبالٍ على الإطلاق. كان مدفوعًا بفضوله، وأبحاثه المجنونة التي لا هدف لها، فتُترك تلك الكائنات لتعيش سنة أو نحو ذلك تكافح وتتخبط، وتعاني، وتلقى حتفها في النهاية على نحو مؤلم. كانت تلك الحيوانات بائسة بداخلها، تدفعها سمة الكراهية في طبيعتها الحيوانية السابقة إلى إلحاق الأذى بعضها ببعض. وكان القانون يحول دون دخولها في أي صراع قصير محتدم، والوصول إلى نهاية حاسمة فيما يتعلق بضغائنها الطبيعية.

في تلك الأيام صار خوفي من هؤلاء البشر الحيوانات مماثلًا لخوفي الشخصي من مورو. انتابتني حالة من الاكتئاب الشديد المتواصل، بعيدًا عن الخوف الذي ترك آثارًا دائمة في ذهني. وعليّ أن أقر بأنني قد فقدت إيماني بعقلانية العالم عندما رأيت ما يشهده من فوضى مؤلمة في هذه الجزيرة. بدا الأمر كأن قدَرًا أعمى — أو آلية ضخمة عديمة الرحمة — يشكل هذا الوجود ويمنحه ملامحه، وأنا ومورو (بشغفه بالبحث) ومونتجومري (بشغفه بشرب الخمر) والبشر الحيوانات بغرائزهم وحدودهم الفكرية، تمزقنا وتحطمنا بلا رحمة وعلى نحو محتوم، بين التعقد اللانهائي لرحى تلك الآلية متواصلة الدوران. لكن هذه الحالة لم تنتابني فجأة … أعتقد أنني قد توقعت شيئًا منها عند التحدث عنها الآن.

الفصل السابع عشر

كارثة

لم يمر أكثر من ستة أسابيع قبل أن أفقد كل ما لديّ من مشاعر تجاه تجارب مورو المخزية، فيما عدا الكراهية والاشمئزاز. كانت الفكرة الوحيدة التي تدور بذهني هي أن أبتعد عن تلك المخلوقات التي تعكس محاكاة مفزعة لخلق الإنسان، لأعود إلى التواصل البشري الأثير والمجدي. بدأ البشر من أبناء جنسي الذين انفصلت عنهم يتخذون صورة حالمة من الفضيلة والجمال في ذاكرتي. لم تتعمق صداقتي التي بدأت مع مونتجومري في السابق، فقد تشوهت صورته لدي نظرًا لانفصاله عن البشر فترة طويلة، ورذيلة إدمانه للخمر في الخفاء، وتعاطفه الجلي مع البشر الحيوانات. وقد تركته يذهب وحده بينهم مرات عدة، في حين تجنبت التواصل معهم بكافة الوسائل الممكنة. كنت أقضي فترات متزايدة من وقتي على الشاطئ أبحث عن أي مركب شراعي يحررني من ذلك المكان، لكنه لم يظهر أبدًا، إلى أن حلت بنا كارثة مروعة ذات يوم أضفت جانبًا مختلفًا على البيئة الغريبة المحيطة بي.

وقعت تلك الكارثة بعد نحو سبعة أو ثمانية أسابيع من نزولي على هذه الجزيرة، أو ربما أكثر من ذلك على ما أظن، وإن كنت لم أكلف نفسي عناء حساب الوقت آنذاك، وقد حدثت في الصباح الباكر؛ أظن نحو الساعة السادسة. كنت قد استيقظت وتناولت إفطاري باكرًا، بعد أن أيقظتني الضوضاء التي كان يحدثها الرجال الحيوانات الثلاثة أثناء حملهم للأخشاب إلى داخل المنطقة المسيجة.

بعد الإفطار ذهبت إلى البوابة المفتوحة للمنطقة المسيجة، ووقفت هناك أدخن سيجارة، وأستمتع بعذوبة الصباح الباكر. مر مورو في تلك اللحظات بجانب المنطقة المسيجة، وألقى عليّ التحية. مر بجانبي، وسمعته خلفي يفتح باب معمله، ويدخل إليه. كنت قد وصلت في تلك الفترة إلى حالة من اللامبالاة تجاه شناعة ذلك المكان حتى إنني

سمعت أنثى الكوجر — ضحية مورو — تبدأ يومًا آخر من التعذيب، دون أن أحرك ساكنًا. لقيت الضحية معذبها المستبد بصرخة ذعر تكاد تشبه بالضبط صرخة امرأة سليطة غاضبة.

ثم حدث شيء لا أزال أجهله إلى هذا اليوم، فقد سمعت صرخة عالية خلفي، ثم صوت شيء يسقط، وعندما استدرت رأيت وجهًا شنيعًا يجري تجاهي. لم يكن وجهًا بشريًّا ولا حيوانيًّا، لكنه كان شيطانيًّا بني اللون، تملؤه ندبات حمراء متشعبة تتبدى منها نقاط حمراء وعيون متقدة عديمة الأجفان. رفعت ذراعي فجأة لأحمي نفسي من الضربة التي دفعتني للأمام وأصابتني بكسر في الساعد. وثب الوحش المفزع المضمد بالقماش الكتاني والضمادات الملطخة باللون الأحمر، الذي كان يمر باهتياج، فوقي ومضى في طريقه. أخذت أتدحرج على الشاطئ، وحاولت الوقوف، لكنني سقطت على ذراعي المكسورة. ظهر مورو بعد ذلك، ووجهه الأبيض الضخم بدا أكثر بشاعة نظرًا للدم الذي كان يتقاطر من جبينه. كان يحمل مسدسًا في إحدى يديه، ولم يكد يلقي نظرة خاطفة علي حتى اندفع في الحال ملاحقًا أنثى الكوجر.

حاولت الاستناد على الذراع الأخرى وجلست. كان الكائن مضمد الجسم يركض في الأمام بوثبات واسعة الخطى على الشاطئ، وتبعه مورو. أدارت أنثى الكوجر رأسها، ورأت مورو، ثم ضاعفت سرعتها فجأة وصولًا إلى الأجمة. كانت تقترب من مورو أكثر مع كل وثبة. وقد رأيتها تندفع بقوة إلى داخل الأجمة، ومورو يركض مترنحًا لإيقافها، فأطلق النار وأخفق في إصابة أنثى الكوجر التي اختفت. واختفى مورو أيضًا بعد ذلك بين النباتات الخضراء المتشابكة.

أخذت أحدق فيهما، ثم أصبحت ذراعي أكثر إيلامًا، فوقفت مترنحًا بينما أتأوه من الألم. ظهر مونتجومري في مدخل الباب، وقد ارتدى ملابسه، وأمسك بمسدسه في يده.

قال دون أن يلاحظ إصابتي: «يا للهول يا بريนديك! لقد فرت تلك المتوحشة! لقد انتزعت الأغلال من الحائط. هل رأيتهما؟» ثم سألني بحدة عندما رآني أمسك بذراعي: «ما الأمر؟»

أجبته: «كنت أقف في مدخل الباب.»

فتقدم نحوي، وأمسك بذراعي، ثم قال: «هناك دم على كُم قميصك»، وشمَّره. وضع السلاح في جيبه، وتحسس ذراعي مما زاد من شعوري بالألم، ثم قادني إلى الداخل. قال: «إن ذراعك مكسورة. لتخبرني كيف أُصبت بهذا الكسر، ماذا حدث؟»

أخبرته بما رأيته في عبارات غير كاملة، يتخللها لهاث ناتج عن الألم. وأثناء ذلك قام مونتجومري بربط ذراعي على نحو سريع ومتقن، وعلَّقها في حمالة مثبتة بكتفي، ثم وقف بعيدًا، ونظر إليّ، وقال: «ستتحسن»، ثم استطرد: «والآن؟» وخرج وأغلق بوابات المنطقة المسيجة، وغاب فترة من الوقت.

كان اهتمامي كله منصبًّا على ذراعي، فما كان ذلك الحادث سوى واحد من بين الأشياء الرهيبة الكثيرة الأخرى التي تحدث من حولي. جلست على الكرسي المريح القابل للطي، وعليّ أن أقر أنني قد لعنت تلك الجزيرة من كل قلبي آنذاك. كان الشعور الأولي بالإصابة في ذراعي قد بدأ يتحول إلى ألم مزعج عند ظهور مونتجومري مرة أخرى.

كان وجهه أكثر شحوبًا، وتبدى جزء من لثته أكبر من أي وقت مضى. قال: «ليس له أي أثر. كنت أظن أنه بحاجة لمساعدتي.» حدق فيّ بعينيه اللتين تخلوان من أي تعبير، ثم قال: «إنها قوية حقًّا، لقد انتزعت الأغلال بسهولة من الحائط.»

توجه إلى النافذة، ثم إلى الباب، واستدار نحوي. قال: «يتعين عليّ اللحاق به. هناك مسدس آخر يمكنني تركه معك. الحقيقة أني قلق قليلًا.»

أمسك بالسلاح، ووضعه في متناولي على المائدة، ثم خرج مُخلفًا شعورًا بعدم الارتياح في المكان. لم أجلس بعد مغادرته، وأمسكت بالمسدس في يدي، ثم توجهت إلى مدخل الباب.

خيم السكون على الصباح كالموت؛ فما من همس للرياح. وكان البحر شبيهًا بالزجاج المصقول والسماء فارغة والشاطئ مقفر. وفي ظل حالتي التي جمعت بين الإثارة والقلق أصابني ذلك السكون بضيق الصدر.

حاولت أن أُصفِّر، فاختفت النغمة. لعنت المكان للمرة الثانية ذلك الصباح، ثم ذهبت إلى جانب المنطقة المسيجة، وحدقت في الأجمة الخضراء التي ابتعلت مورو ومونتجومري. متى سيعودان؟ وكيف؟

ظهر بعيدًا على الشاطئ أحد البشر الحيوانات صغير الحجم رمادي اللون. كان يركض نحو حافة المياه، ثم أخذ يرشها من حوله. عدت متمهلًا إلى مدخل الباب، ثم إلى الجانب ثانية، وأخذت أروح جيئة وذهابًا كما لو كنت حارسًا يؤدي وظيفته. سمعت مرة صوت مونتجومري ينادي من بعيد: «مورو ... مورو!» أصبحت ذراعي أقل إيلامًا، لكن شديد السخونة. كنت محمومًا وعطشًا. صار ظلي أقصر طولًا. راقبت مونتجومري المبتعد حتى اختفى ثانيةً. ألن يعود مورو ومونتجومري ثانيةً أبدًا؟ كانت هناك ثلاثة طيور بحرية تتشاجر على شيء ثمين دفعته الأمواج نحو الشاطئ.

سمعت بعد ذلك صوت طلق ناري من بعيد خلف المنطقة المسيجة، تبعه صمت طويل، ثم صوت آخر. صدرت بعد ذلك صرخة على مسافة أقرب، تلتها أخرى. وبدأ خيالي البائس يعذبني، ثم سمعت فجأة صوت طلق ناري على مسافة قريبة.

ذهبت إلى الجانب وقد روعني الصوت، فرأيت مونتجومري. كان وجهه قرمزي اللون، وشعره مشعثًا، وسرواله ممزقًا عند الركبة. بدا على وجهه رعب شديد، ووقف خلفه البشري الحيوان ميلينج وقفة مترهلة، وقد تلطخ فكه ببقع بنية اللون لا تبشر بخير.

قال: «هل أتى؟»

أجبته: «مورو؟ كلا.»

قال الرجل وهو يهلث ويكاد ينشِج ليلتقط أنفاسه: «يا إلهي!» ثم أمرني وهو يأخذ بذراعي: «عُد إلى الداخل! لقد فقدوا عقلهم، ويركضون في جميع الأنحاء بجنون. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ لا أدري. سأخبرك بالأمر عندما ألتقط أنفاسي. أعطني بعض البراندي.»

سار أمامي وهو يعرج ليدخل الغرفة وجلس على الكرسي المريح القابل للطي. دفع ميلينج جسمه بقوة على الأرض أمام مدخل الباب، وبدأ يلهث كالكلب. أحضرت لمونتجومري بعض البراندي والماء. جلس محدقًا — وقد خلا وجهه من أي تعبير — يحاول التقاط أنفاسه. وبعد بضع دقائق بدأ يخبرني بما حدث.

لقد اقتفى مونتجومري أثر مورو وأنثى الكوجر بعض الوقت. وكان الأمر واضحًا على نحو كافٍ في البداية بفضل الأجمة المتحطمة والمتكسرة، وقطع القماش الممزقة من ضمادات أنثى الكوجر، وبعض بقع الدم التي كان يراها بين الحين والآخر على أوراق الشجيرات الصغيرة. لكنه فقد أثرهما عند الأرض المغطاة بالصخور خلف النهير حيث رأيت الرجل الوحش يشرب، وذهب بعد ذلك هائمًا على وجهه مناديًا مورو. لحق به بعد ذلك ميلينج حاملًا بلطة خفيفة. لم يكن ميلينج قد رأى أي شيء مما حدث مع الكوجر. انطلقا يناديان معًا، وجاء اثنان من البشر الحيوانات، ينحنيان بتذلل لهما وينعمان النظر فيهما من بين الشجيرات، بإيماءات ومشية نبهت مونتجومري إلى أن ثمة أمرًا غريبًا بشأنهما. نادى عليهما، ففرا على نحو يوحي بالشعور بالذنب. توقف مونتجومري بعد ذلك عن النداء عليهما، وبعد التجول فترة من الوقت على غير هدى، قرر التوجه إلى الأكواخ.

فوجد الوادي مهجورًا.

أخذ مونتجومري يعود أدراجه نظرًا لقلقه الذي كان يتزايد مع كل دقيقة. قابل بعد ذلك الرجلين الخنزيرين اللذين سبق لي رؤيتهما يرقصان عند وصولي إلى الجزيرة؛ كانا منفعلين للغاية، وفماهما ملطخين ببقع الدماء. جاءا محدثين ضجة بين أشجار السرخس، وتوقفا بوجهين شرسين عند رؤيتهما له. ضرب بسوطه في الهواء ببعض الارتياب، فاندفعا باتجاهه على الفور. لم يجرؤ من قبل أيٌّ من البشر الحيوانات على فعل ذلك. ومن ثم، أطلق مونتجومري النار على رأس أحدهما، في حين قفز ميلينج فوق الآخر، وأخذ الاثنان يتدحرجان متصارعين. وتمكن ميلينج من إخضاع خصيمه، وغرز أسنانه في رقبته، فأطلق مونتجومري النار عليه أيضًا بينما كان يصارع للخلاص من قبضة ميلينج. وواجه مونتجومري بعد ذلك صعوبة في إقناع ميلينج بالعودة معه.

ومن ثم، هرع الاثنان عائدين إليّ. وفي الطريق اندفع ميلينج فجأة في الأجمة، وأخرج رجلًا شبيهًا بالقط البري حجمه أصغر من المعتاد، تلطخه الدماء أيضًا، ويعرج من أثر جرح في القدم. ركض ذلك الحيوان مسافة قصيرة، ثم استدار بوحشية بعد أن أصبح لا مفر له، فأطلق مونتجومري النار عليه، بلا مبرر واضح على ما أعتقد.

قلت: «ما الذي يعنيه كل ذلك؟»

هز رأسه، وعاد لشرب البراندي مرة أخرى.

الفصل الثامن عشر

العثور على مورو

عندما رأيت مونتجومري يتجرع كأس البراندي الثالثة، أخذت على عاتقي مسئولية التدخل. كان شبه ثمل بالفعل، أخبرته أنه من المؤكد أن خطبًا خطيرًا قد أصاب مورو بحلول ذلك الوقت، وإلا لكان قد عاد، وأنه ينبغي علينا التحقق مما حدث له، فطرح مونتجومري بعض الاعتراضات الواهية إلى أن وافق في النهاية. تناولنا بعض الطعام، ثم بدأ ثلاثتنا في البحث عن مورو.

كان البدء في ذلك السكون الذى طغى على فترة الظهيرة بتلك المنطقة الاستوائية الحارة يحمل طابعًا حيويًّا على نحو متفرد، وقد يرجع السبب في ذلك الشعور إلى التوتر الذي كان يسيطر على ذهني في ذلك الوقت، لكن لا يزال الأمر يبدو كذلك لي حتى الآن. تقدمنا ميلينج، وكان كتفاه منحنيتين، ورأسه الأسود الغريب يتحرك فجأة وبسرعة عند انتقاله بنظره من أحد جانبي الطريق إلى الآخر. لم يكن مسلحًا، فقد وقعت منه البلطة أثناء مواجهته للرجلين الخنزيرين. وصارت أسنانه هي أسلحته عند دخوله في عراك. سار مونتجومري وراء ميلينج متعثرًا في خطاه، واضعًا يديه في جيبيه، ويبدو التكدر على وجهه؛ فكان متجهمًا في وجهي على نحو مضطرب بسبب البراندي. كانت ذراعي اليسرى معلقة في حمالة كتف — ولحسن الحظ أنها كانت اليسرى — في حين كنت أحمل مسدسي في يدي اليمنى.

سلكنا طريقًا ضيقًا بين النباتات البرية الوافرة على الجزيرة، متوجهين نحو المنطقة الشمالية الغربية. توقف ميلينج فجأة، وتسمر في احتراز. كاد مونتجومري يتعثر فيه، ثم توقف هو أيضًا. وبعد الإنصات بعناية سمعنا أصواتًا ووقع خطوات تأتي من بين الأشجار وتقترب منا.

قال أحدهم بصوت خفيض مرتعش: «لقد مات.»

رد آخر بهذر غير واضح: «لم يمت ... لم يمت.»

تعالت أصوات أخرى عديدة: «رأيناه ... رأيناه.»

صاح مونتجومري فجأة: «أنتم! من هناك؟!»

قلت: «اللعنة!» وأمسكت بمسدسي.

خيم الصمت، ثم صدر صوت تحطم بين النباتات الخضراء المتشابكة من هنا وهناك. ظهرت بعد ذلك ستة وجوه غريبة يضيئها ضوء غريب. أصدر ميلينج صوت زمجرة من حلقه. تعرفت على الرجل القرد — كنت قد تعرفت على صوته بالتأكيد من قبل — والكائنين ذوي الملامح البنية المضمدين بالأربطة البيضاء اللذين سبق لي رؤيتهما في قارب مونتجومري. كان معهم الكائنان المرقطان، وذلك الكائن الأحدب الرهيب ذو البشرة الرمادية الناطق بالقانون، بشعره الرمادي المسدل على وجنتيه، وحاجبيه الرماديين كثيفي الشعر، وخصل الشعر الرمادية التي تنسدل من فارق في منتصف شعره على جبهته. كان كائنًا ضخمًا عديم الوجه ذا عينين حمراوين غريبتين تنظران إلينا في فضول من بين النباتات الخضراء.

لم يتحدث أحد لبعض الوقت، ثم قال مونتجومري مصابًا بالفواق: «من ... قال إنه قد مات؟»

نظر الرجل القرد على نحو يوحي بالشعور بالذنب إلى الكائن ذي الشعر الرمادي. فقال الوحش: «لقد مات ... إنهم رأوا ذلك.»

لم يكن هناك أي تهديد في ذلك الخلاف بأي حال من الأحوال؛ فقد كانوا مروعين ومتحيرين. قال مونتجومري: «أين هو؟»

وقال الكائن الرمادي مشيرًا في أحد الاتجاهات: «هناك.»

سأل الرجل القرد: «هل سيكون هناك قانون الآن؟ هل ستظل الأمور على حالها؟ هل مات حقًّا؟» وكرر الرجل المضمد بأربطة بيضاء: «هل هناك قانون؟» كما قال الكائن ذو الشعر الرمادي: «هل هناك قانون، يا من تحمل السوط؟ لقد مات.» ووقفوا جميعًا ينظرون إلينا.

قال مونتجومري، وقد أدار عينيه المضجرتين نحوي: «من الواضح أنه قد مات بالفعل يا بريнديك.»

كنت أقف خلفه أثناء ذلك الحديث، ولاحظت كيف أن زمام الأمور كان بأيديهم. تقدمت فجأة أمام مونتجومري، وقلت بصوت مرتفع: «أيها الخاضعون للقانون! إنه لم يمت.»

أدار ميلينج عينيه الثاقبتين تجاهي، في حين تابعت حديثي: «لقد غيَّر هيئته؛ غيَّر جسده، ولن تروه فترة من الزمن. إنه ... هناك» أشرت لأعلى، وتابعت: «... حيث يمكنه مراقبتكم. لا يمكنكم رؤيته، لكن بإمكانه رؤيتكم. يتعين عليكم الخوف من القانون!»

نظرت إليهم في أعينهم مباشرة وبحزم، فتراجعوا في ذهول.

قال الرجل القرد، محدقًا بخوف لأعلى بين الأشجار الكثيفة: «إنه عظيم، إنه صالح.»

قلت متسائلًا: «وماذا عن الشيء الآخر؟»

قال الكائن الرمادي اللون، وهو لا يزال ينظر إليّ: «الشيء الذي كان يدمي، ويجري وهو يصرخ وينشج ... لقد لقي المصير نفسه.»

قال مونتجومري متنفسًا الصعداء: «هذا أمر جيد.»

قال الكائن الرمادي: «الرجل الآخر الممسك بالسوط ...»

فقلت: «حسنًا!»

– «قال إنه قد مات.»

لكن مونتجومري كان متيقظًا بما فيه الكفاية ليعي دافعي وراء إنكار موت مورو، فقال بهدوء: «إنه لم يمت ... لم يمت على الإطلاق ... إنه حي مثلي تمامًا.»

قلت: «انتهك البعض القانون، وسوف يموتون. بعضهم مات بالفعل. لترشدونا الآن إلى حيث يرقد جسده العجوز ... ذلك الجسد الذي تخلص منه لعدم احتياجه إليه بعد الآن.»

قال الكائن الرمادي اللون: «من هذا الاتجاه، أيها الرجل الذي سار في البحر.»

سرنا خلف تلك الكائنات الستة التي تولت إرشادنا بين أشجار السرخس والنباتات المتسلقة وسيقان النباتات المتشابكة ناحية الشمال الغربي. سمعنا بعد ذلك صوت صراخ وتكسر الأغصان، ورأينا بعض الأقزام ذوي بشرة وردية اللون يركضون من حولنا وهم يصيحون. وبعد ذلك مباشرة ظهر وحش ضارٍ في مطاردة بالأمام، وقد لطخته الدماء. مر وسطنا قبل أن يتمكن من التوقف مباشرةً. قفز الكائن الرمادي جانبًا، في حين اندفع ميلينج مزمجرًا نحوه، فدفعه ذلك الوحش جانبًا، أما مونتجومري فقد أطلق النار عليه، لكنه أخفق، فأحنى رأسه، ورفع ذراعه مستسلمًا، ثم استدار ليفر. أطلقت أنا النار، وظل ذلك الشيء يقترب؛ فأطلقت عليه النار مرة أخرى عن قرب في وجهه القبيح. رأيت ملامحه تختفي في اللحظة نفسها، ووجهه ينبعج للداخل. لكنه تجاوزني، وأمسك بمونتجومري وتعلق به إلى أن سقط برأسه على الأرض بجانبه، وسحبه باسطًا ذراعيه وقد غشته سكرة الموت.

وجدت نفسي وحدي مع ميلينج، والوحش الميت، والرجل المنبطح أرضًا. وقف مونتجومري ببطء، وحدق باضطراب في الرجل الحيوان المهشم الوجه الراقد بجانبه. أيقظه الأمر بلا شك من سُكرِه. وقف على قدميه مترنحًا، ثم رأيت الكائن رمادي اللون يعود بحذر بين الأشجار.

قلت مشيرًا إلى الرجل الميت: «انظروا! ألا يزال هناك قانون؟ هذا جزاء من يخرق القانون.»

فأشار الرجل الرمادي اللون إلى الجثة، وقال بصوته الخفيض مكررًا جزءًا من تراتيلهم: «إنه يرسل النار التي تقتل.»

تجمع الآخرون حولنا، وأخذوا يحدقون فترة من الوقت.

اقتربنا أخيرًا من الطرف الغربي للجزيرة. ورأينا في طريقنا جسد أنثى الكوجر المشوه والممزق، وقد تهتكت عظمة كتفها إثر رصاصة أصابتها، وعلى بعد نحو عشرين مترًا عثرنا أخيرًا على ما كنا نبحث عنه. كان منكفئًا على وجهه في مساحة من الأرض سبق وطؤها داخل مأوى من أشجار الخيزران. كانت إحدى يديه شبه مفصولة عند الرسغ، وشعره الفضي ملطخ بالدماء. كان رأسه مهشم بأغلال أنثى الكوجر، وقد خضبت الدماء قصب الخيزران الموجود تحته. لم نتمكن من العثور على مسدسه. أداره مونتجومري ليصبح وجهه لنا.

حملنا جثمانه إلى المنطقة المسيجة، بمساعدة البشر الحيوانات السبعة الآخرين، وكنا نستريح بين الحين والآخر. كان الليل يلقي بظلاله على السماء. سمعنا مرتين أصوات عواء وصياحًا لكائنات بعيدة عنا لم نتمكن من رؤيتها. أيضًا ظهر الكائن الصغير وردي اللون الشبيه بالكسلان مرة واحدة، وحدق فينا، ثم اختفى من جديد. لكننا لم نُهاجم ثانية. وعند بوابات المنطقة المسيجة تركنا الرجال الحيوانات الذين كانوا برفقتنا، وصحبهم ميلينج. أغلقنا المكان بالمفاتيح، ثم أخذنا جثمان مورو المشوه إلى الفناء، ووضعناه على كومة من الأغصان المقطوعة.

توجهنا بعد ذلك إلى المعمل، وقضينا على كل ما وجدناه حيًّا في المكان.

الفصل التاسع عشر

احتفال مونتجومري

بعد أن أتممنا ما قمنا به واغتسلنا وتناولنا الطعام، ذهبت أنا ومونتجومري إلى غرفتي الصغيرة، ودخلنا في مناقشة جادة حول وضعنا للمرة الأولى. كان الوقت قد قارب على منتصف الليل، وكاد مونتجومري لا يكون ثملًا، لكنه كان مضطرب الذهن كثيرًا، فقد كان خاضعًا للغاية لتأثير شخصية مورو. وأعتقد أنه لم يفكر مطلقًا في أن مورو يمكن أن يموت. كانت هذه الكارثة بمنزلة انهيار مفاجئ للعادات التي صارت جزءًا من طبيعته في السنوات العشر أو الأكثر الرتيبة التي قضاها على الجزيرة. فجاء حديثه معي غامضًا، وإجاباته عن الأسئلة التي أطرحها ملتوية؛ هذا فضلًا عن تشتيته الحوار بطرح أسئلة عامة.

قال مونتجومري: «يا له من عالم تافه! ما كل هذه الفوضى؟! لم أحظ بأي حياة، وطالما تساءلت متى ستبدأ حياتي. ستة عشر عامًا أتعرض فيها لمضايقات المرضين والمعلمين الذين كانوا يفعلون ذلك تعمدًا وباستمتاع، وخمسة أعوام في لندن أَكِدُّ في دراسة الطب بطعام رديء ومسكن حقير، وملابس رثة، ورذائل دنيئة. سرت متخبطًا، ولم أحظ بما هو أفضل من ذلك أبدًا إلى أن أُقصيت إلى هذه الجزيرة البغيضة. عشرة أعوام قضيتها هنا! وما الغرض من ذلك كله يا بريندك؟ أنحن فقاعات يتلاعب بنا طفل صغير؟»

كان من العسير التعامل مع هذا الهذيان، لكنني قلت: «الشيء الذي ينبغي علينا التفكير فيه الآن هو كيف نهرب من هذه الجزيرة.»

فجاء رده: «وما جدوى الهروب؟ إنني شخص منبوذ. أين يمكنني الذهاب؟ الأمور جيدة معك يا بريندك. العجوز المسكين مورو! لا يمكننا تركه هنا ليُنهش لحمه … بالإضافة إلى ذلك، ما الذي سيحدث للبشر الحيوانات من ذوي الطباع الجيدة؟»

أجبته: «حسنًا، سننتهي من ذلك غدًا. كنت أفكر أن بإمكاننا جمع الأغصان المتكسرة على هيئة محرقة، وحرق جثمانه، وتلك الكائنات الأخرى التي قضينا عليها ... أما بعد ذلك، فماذا سيحدث للبشر الحيوانات؟»

– «لا أعلم. أعتقد أن الكائنات المتحولة من حيوانات ضارية سيجن جنونها عاجلًا أو آجلًا. لا يمكننا ذبحها جميعًا. أيمكننا ذلك؟ أعتقد أن ذلك ما سترجحه طبيعتك البشرية؟ ... لكنهم سيتغيرون. سيتغيرون بالتأكيد.»

أخذ يتحدث على هذا النحو غير الحاسم إلى أن شعرت أنني بدأت أفقد أعصابي. وعندما تحدثت معه بشيء من الحدة صاح: «اللعنة! ألا ترى أن مصيبتي أكبر من مصيبتك؟» ثم نهض، وذهب لإحضار بعض البراندي. قال عندما عاد: «اشرب يا من تدعي الطُّهر! اشرب!»

قلت: «لن أفعل!» وجلست متجهمًا أراقب وجهه في شعلة الضوء الأصفر أثناء شربه للبراندي الذي دفعه إلى ثرثرة تعكس ما يعانيه من شقاء. أتذكر أنني شعرت بملل رهيب آنذاك. أخذ مونتجومري يدافع بعاطفة جياشة عن البشر الحيوانات وعن ميلينج. وقال إن ميلينج هو الوحيد الذي كان يهتم لأمره عن حق. وفجأة، خطرت بباله فكرة.

قال: «اللعنة!» ونهض مترنحًا ومُحكمًا قبضته على زجاجة البراندي. وعلمت بالحدس ما كان ينوي فعله. قلت أثناء نهوضي ومواجهتي له: «لن تعطي ذلك المتوحش شرابًا!»

فرد: «متوحش! أنت المتوحش. إنه يشرب كما لو كان متدينًا. ابتعد عن طريقي يا برينديك!»

قلت: «بالله عليك!»

صاح بأعلى صوته: «ابتعد ... عن طريقي!» وأخرج مسدسه فجأة.

قلت: «حسنًا!» وتنحيت جانبًا بعد أن كدت أنقض عليه وهو يضع يده على سقاطة الباب، فتراجعت عندما فكرت في ذراعي عديمة الجدوى. واستطردت: «لقد صرت وحشًا أنت نفسك ... لتذهب وتنضم إليهم!»

دفع الباب ليفتحه، ووقف في مدخله، نظر إليّ بجانب وجهه بين ضوء المصباح الأصفر ووهج القمر الضعيف. بدا تجويفَا عينيه كبقعتين سوداوين أسفل حاجبيه الخشنين. قال: «يا لك من متعنت كئيب يا برينديك! أحمق تسيطر عليه دومًا المخاوف والأهواء. إننا في موقف حرج. أعتزم الانتحار غدًا، ولذا سأحتفل الليلة.»

استدار بعد ذلك، وخرج في ضوء القمر، وصاح: «ميلينج! صديقي العزيز ميلينج!»

جاءت ثلاثة مخلوقات مبهمة الملامح في الضوء الفضي تسير على حافة الشاطئ الذي بدا كئيبًا، أحدهم مضمد بالأربطة البيضاء، والآخران أشبه ببقعتين سوداوين تسيران خلفه. توقفوا محدقين أمامهم، ثم رأيت كتفي ميلينج المنحنيتين أثناء قدومه عبر جانب المنزل.

صاح مونتجومري: «اشربوا! لتشربوا أيها المتوحشون وتصبحوا بشرًا. اللعنة! إنني ماهر حقًّا! لقد نسي مورو ذلك؛ هذه هي اللمسة النهائية. اشربوا، إنني آمركم بذلك.» وانطلق مهرولًا ناحية الغرب، وهو يلوح بالزجاجة في يده، وميلينج يسير بينه وبين المخلوقات الثلاثة مبهمة الملامح التي لحقت بهما.

توجهت إلى مدخل الباب، فقد كانوا غير واضحين بالفعل في سديم ضوء القمر قبل أن يتوقف مونتجومري. رأيته يعطي جرعة من البراندي الصِرف إلى ميلينج، واختفوا بعد ذلك جميعًا في رقعة واحدة مبهمة الملامح من الأرض. سمعت مونتجومري يصيح: «غنوا! لتغنوا جميعًا معًا ... «اللعنة على بريند يك!» ... حسنًا، والآن ثانيةً: «اللعنة على بريند يك!».»

انقسمت تلك المجموعة السوداء إلى خمسة أفراد منفصلين، واستداروا ببطء بعيدًا عني ليسيروا على طول الشاطئ البراق. أخذ كلٌّ منهم يعوي كما يحلو له، أو يقذفني بالإهانات، أو ينفِّس عن أي شيء آخر أوحى البراندي له به.

سمعت آنذاك صوت مونتجومري يصيح من بعيد: «إلى اليمين!» فساروا يصيحون ويعوون في ظلمة الأشجار، ورويدًا رويدًا خيم الصمت عليهم.

عاد لليل رونقه الهادئ من جديد، فبزغ القمر بالكامل، وصار يتجه نحو الغرب. كان بدرًا ساطع الضياء يطفو في السماء الزرقاء الفارغة. انعكس ظل الحائط على مسافة نحو متر واحد وبسواد حالك على قدمي. كان الجانب الشرقي للبحر رماديًّا مظلمًا وغامضًا عديم الملامح، وبين البحر والظلال لمعت الرمال الرمادية (المكونة من البلور والزجاج البركاني) وتألقت كما لو كانت شاطئًا من الماس. كان مصباح البارافين يتوهج ساخنًا خلفي بلون أحمر داكن.

أوصدت بعد ذلك الباب بالمفتاح، وتوجهت إلى داخل المنطقة المسيجة حيث يرقد مورو إلى جانب آخر ضحاياه؛ كلاب الصيد واللاما وبعض الحيوانات البائسة الأخرى. بدت السكينة على وجهه حتى بعد تلك الميتة الرهيبة، وعيناه المتيبستان مفتوحتان

تحدقان في القمر الأبيض الجامد من فوقه. جلست على حافة المنطقة المنخفضة، وبدأت أفكر في خططي، وأنا أحدق في ذلك القدر المروع من الضوء الفضي والظلال التي تنذر بالسوء.

قررت أنني في الصباح سأجمع بعض المؤن في قارب النجاة، وبعد أن أشعل النار في الكومة الموجودة أمامي سأشق طريقي ثانية في عزلة ذلك البحر متعالي الأمواج. شعرت أنه ما من أمل في مساعدة مونتجومري؛ فالحقيقة أنه أكثر شبهًا بهؤلاء البشر الحيوانات، وغير مؤهل للحياة بين البشر. لا أعلم الفترة التي قضيتها جالسًا في ذلك المكان أخطط لما سأفعله. لا بد أنها كانت ساعة أو نحوها. انقطع حبل أفكاري بعودة مونتجومري إلى الجوار. سمعت عواءً يصدر من حناجر عديدة، وضجيج صرخات متهللة تتجه نحو الشاطئ، إلى جانب هتاف ونباح وصراخ انفعالي يبدو أنه توقف بالقرب من حافة المياه. ارتفع صوت الضوضاء وانخفض، وسمعت صوت ضربات قوية وتحطم أخشاب، لكن الأمر لم يزعجني آنذاك. وبدأ غناء متنافر الأصوات.

انتقلت بأفكاري إلى البحث عن وسيلة للهروب. نهضت، وأحضرت المصباح، وذهبت إلى سقيفة أبحث فيها عن بعض البراميل الصغيرة التي رأيتها هناك من قبل. اهتممت بعد ذلك ببعض علب البسكويت، ففتحت إحداها. رأيت حينذاك بطرف عيني هيكلًا أحمر، واستدرت سريعًا.

امتد خلفي الفناء بلونيه الأبيض والأسود في ضوء القمر، وكومة الأخشاب وحزم العصي التي يرقد عليها مورو وضحاياه المشوهون، مكومين بعضهم فوق بعض. بدوا كما لو كان كلٌّ منهم يتعلق بالآخر في صراع انتقامي أخير. انفغرت جروح مورو بلون أسود كما الليل، والدم الذي كان يتقاطر من جسمه كسا الأرض كبقع سوداء فوق الرمال. رأيت بعد ذلك — دون أن أفهم — سبب الطيف الذي رأيته؛ كان وميضًا أحمر داكنًا ظهر وتراقص، ثم انتقل إلى الحائط المقابل. أخطأت في تفسير الأمر، وتخيلت أنه انعكاس للمصباح بضوئه المرتعش، فاستدرت ثانية ناحية المؤن الموجودة في السقيفة. تابعت البحث بينها مثلما قد يتسنى لرجل ذي ذراع واحدة، وعثرت على بعض الأشياء الملائمة، فوضعتها جانبًا لغداء الغد. كانت حركتي بطيئة، ومر الوقت سريعًا. وسرعان ما طلع الصبح.

خفت صوت الغناء، وحلت محله ضجة، ثم عاد من جديد، وفجأة تحول إلى جلبة. سمعت صيحات تقول: «المزيد، المزيد!» وصوت عراك، وصرخة مسعورة مباغتة. تغيرت

نوعية الأصوات كثيرًا حتى إنها جذبت انتباهي. خرجت إلى الفناء، وأنصتّ. صدر بعد ذلك صوت صادم لطلق ناري من مسدس.

هرعت في الحال عبر الغرفة وصولًا إلى مدخل الباب الصغير. وأثناء قيامي بذلك سمعت صوت سقوط بعض من صناديق التعبئة خلفي، وارتطامها بعضها ببعض، مع صوت تهشم زجاج على أرضية السقيفة. لكنني لم أهتم بذلك. فتحت الباب على مصراعيه، ونظرت خارجًا.

كانت هناك مَشعلة تضطرم نيرانها على الشاطئ بالقرب من مأوى القوارب، ومن حولها يتعارك عدد من الهياكل السوداء. سمعت مونتجومري ينادي باسمي، فبدأت أركض في الحال نحو النار ممسكًا بالمسدس في يدي. رأيت ومضة تنطلق من مسدس مونتجومري مرة واحدة بالقرب من الأرض. كان قد سقط على الأرض. صحت بكل قوتي، وأطلقت النار في الهواء.

سمعت أحدهم بعد ذلك يصيح: «السيد!» فتفرق الجمع المتشابك من الهياكل السوداء، وانطفأت النيران. فر البشر الحيوانات في فزع مفاجئ أمامي على الشاطئ. ومن فرط انفعالي أطلقت النيران على ظهورهم وهم يهربون ويختفون وسط الأجمة. عدت بعد ذلك إلى الأكوام السوداء على الأرض.

كان مونتجومري يرقد على ظهره، والوحش الرمادي كثيف الشعر منبطح على جسده. كان ميتًا، لكنه لا يزال ممسكًا بعنق مونتجومري بمخالبه المتقوسة. وبالجوار، رقد ميلينج على وجهه لا يحرك ساكنًا، ورقبته مفتوحة من أثر العض، والجزء العلوي من زجاجة البراندي المكسورة في يده. وبالقرب من النار كائنان آخران، أحدهما لا يتحرك، والآخر يتأوه بين الحين والحين، ويرفع رأسه ببطء بين الحين والآخر، ثم ينزلها.

أمسكت بالرجل الرمادي، وسحبته من فوق جسد مونتجومري؛ فأفلتت مخالبه المعطف الممزق كرهًا أثناء سحبي إياه بعيدًا.

كان وجه مونتجومري مكفهرًا وبالكاد يتنفس. رششت بعضًا من ماء البحر على وجهه، وأسندت رأسه على معطفي الذي لففته كوسادة. كان ميلينج ميتًا، والمخلوق الجريح الموجود بجانب النار — كان رجلًا ذئبًا رمادي الوجه ذا لحية — يرقد والجزء الأمامي من جسمه مستند على الخشب الذي لا يزال متوهجًا. كان البائس يعاني جروحًا بالغة جعلتني أطلق النار عليه لأفجر رأسه في الحال. أما المتوحش الآخر، فكان أحد الرجال الثيران المضمدين بأربطة بيضاء، وكان ميتًا أيضًا.

اختفى باقي الرجال الحيوانات من الشاطئ، وذهبت لمونتجومري ثانية، وجثوت بجانبه لاعنًا جهلي بالطب.

خبت النار بجانبي، ولم تتبق سوى ألسنة النيران المتصاعدة من الخشب المتوهج عند أطراف مركز النار، والمختلطة برماد الأغصان المقطوعة رمادية اللون. تساءلت عرضًا من أين أتى مونتجومري بالخشب. لاحظت بعد ذلك طلوع الفجر؛ فأضاءت السماء، وصار القمر الآخذ في الاختفاء أكثر شحوبًا وإعتامًا، في حين حف السماء من ناحية الشرق خط أحمر.

سمعت بعد ذلك صوتًا مكتومًا وفحيحًا من ورائي، وعند النظر للخلف هببت واقفًا على قدمي وصرخت رعبًا. تصاعدت ألسنة دخان أسود كثيفة من المنطقة المسيجة، واندفعت من بين ظلامها العاصف ألسنة لهب حمراء كالدم. أمسكت بعد ذلك النيران في السقف القشي. ورأيت تصاعد ألسنة اللهب المتعرجة عبر القش المتحدر. واندفعت كتلة نيران فجأة من نافذة غرفتي.

علمت على الفور ما حدث. تذكرت صوت الارتطام الذي سمعته؛ فعندما هرعت لمساعدة مونتجومري أسقطت المصباح.

تيقنت حينها من عدم وجود أي أمل في إنقاذ محتويات المنطقة المسيجة. عاودت التفكير في خطة هروبي. استدرت سريعًا لأنظر حيث يوجد القاربان على الشاطئ. كانا قد اختفيا! وكان هناك فأسان على الرمال بجانبي، ورقائق وشظايا الخشب متناثرة في جميع الأنحاء، ورماد النار المشتعلة يزداد سوادًا ويتصاعد منه الدخان مع ضياء الفجر. لقد حرق مونتجومري القاربين لينتقم مني، ويمنعنا من الرجوع إلى البشرية.

انتابتني حالة من الغضب الشديد فجأة، وكدت أسحق رأسه الغبي وهو ممدد عند قدمي لا حيلة له. لكن فجأة تحركت يده بوهن شديد على نحو يثير الشفقة مما أذهب حنقي عليه. تأوه وفتح عينيه دقيقة.

جثوت بجانبه، ورفعت رأسه. ففتح عينيه ثانيةً محدقًا بصمت في ضوء الفجر، ثم التقت عيناه بعينيَّ. أنزل جفنيه، وقال جاهدًا في الحال: «آسف»، بدا أنه يحاول التفكير، ثم همس: «إنها النهاية ... نهاية هذا الكون السخيف. يا لها من فوضى ...»

أنصتُّ إليه، سقط رأسه في عجز على أحد الجانبين. ظننت أن بعض الشراب يمكن أن يعيد إليه نشاطه، لكن ما كان هناك شراب أو وعاء لأحضر فيه الشراب. أصبح جسمه أكثر ثقلًا فجأة، فأصبت بحالة من الفتور واللامبالاة.

ملت على وجهه، ووضعت يدي في المزق الموجود بقميصه. كان قد مات، وفي اللحظة التي لفظ فيها أنفاسه الأخيرة ارتفعت حافة الشمس على هيئة خط من الوهج الأبيض ناحية الشرق خلف الخليج، باعثة بأشعتها في جميع أرجاء السماء، ومحولة البحر المظلم إلى اضطراب متقلب من الضوء الساطع. وسقطت أشعتها كهالة على الوجه الذي قبضه الموت.

أفلتّ رأسه برفق لينزل على الوسادة القاسية التي صنعتها له، ونهضت. امتد أمامي البحر المتلألئ بما يعكسه من عزلة؛ تلك العزلة التي عانيتها كثيرًا. ومن خلفي الجزيرة يخيم عليها الصمت مع طلوع الفجر، وسكانها من البشر الحيوانات لا صوت لهم ولا أثر. أمسكت النيران بالمنطقة المسيجة بكل ما فيها من مؤن وذخيرة، محدثةً ضجة عالية وألسنة لهب مفاجئة، وصوت فرقعة متقطعًا، وصوت ارتطام بين الحين والآخر. حجب الدخان الكثيف الشاطئ عن نظري، وكان ينحدر على قمم الأشجار البعيدة باتجاه الأكواخ الموجودة في الوادي. وبجانبي، كانت البقايا المتفحمة للقاربين وتلك الجثث الخمس.

خرج بعد ذلك ثلاثة من البشر الحيوانات من بين الأجمة، بأكتافهم المحدبة ورءوسهم الناتئة، وأيديهم المشوهة المعلقة بجوانبهم على نحو أخرق، وعيونهم المتسائلة غير الودودة. وتقدموا نحوي بإيماءات مترددة.

الفصل العشرون

وحيدًا مع البشر الحيوانات

واجهت هؤلاء البشر — مواجهًا فيهم مصيري — بيد واحدة بالمعنى الحرفي للكلمة؛ إذ كانت إحدى ذراعيّ مكسورة. وكان بجيبي مسدس به خزانتا أعيرة فارغتان. وعلى الشاطئ بين الرقائق الخشبية المتناثرة كانت الفأسان اللتان اسْتُخْدِمتا في تقطيع خشب القاربين، في حين تتلاطم الأمواج على الشاطئ من خلفي.

لم يكن أمامي سوى التحلي بالشجاعة. نظرت في وجوه الوحوش المتقدمة نحوي بحزم، فتجنبوا النظر في عينيّ، وأخذوا يتفحصون الجثث الممددة خلفي على الشاطئ بأنوفهم المرتعشة. تقدمت نحو ست خطوات، والتقطت السوط الملطخ بالدماء من تحت جثمان الرجل الذئب، وضربت به في الهواء.

توقفوا وحدقوا فيّ، فقلت لهم: «ألقوا التحية! انحنوا أمامي!»

ترددوا، ثم حنى أحدهم ركبتيه، فكررت الأمر والرعب يملأ قلبي، ثم تقدمت نحوهم. ركع أحدهم، ثم تبعه الاثنان الآخران.

استدرت، وسرت تجاه الجثث، دون أن أدير وجهي عن البشر الحيوانات الثلاثة الراكعين أمامي كما لو كنت ممثلًا يغادر المسرح دون أن يدير وجهه عن الجمهور.

قلت واضعًا قدمي على جثمان الناطق بالقانون: «لقد خرقوا القانون، فقُتلوا. حتى الناطق بالقانون، والآخر حامل السوط. القانون عظيم! تعالوا وانظروا!»

قال أحدهم، وهو يتقدم محدقًا: «لا أحد يهرب.»

قلت: «لا أحد يهرب. لذا، أنصتوا إليّ وافعلوا ما آمركم به.» فوقفوا يتبادلون النظر بوجوه متسائلة.

تابعت حديثي: «قفوا هناك.»

التقطت الفأسين، وعلقتهما في حمالة كتفي، وأدرت جثة مونتجومري، ملتقطًا مسدسه الذي كانت لا تزال به خزانتا أعيرة ممتلئتان. وعندما انحنيت لأفتش ملابسه عثرت على ستة أعيرة نارية في جيبه.

قلت، وأنا أنهض ثانية وأشير بالسوط: «خذوا هذا الجثمان، وألقوا به بعيدًا في البحر.»

تقدموا للأمام، وكان من الجلي أنهم لا يزالون خائفين من مونتجومري، لكنهم أكثر خوفًا من الشرر الأحمر لضربات سوطي. وبعد بعض الارتباك والتردد، وبعض ضربات السوط والصياح، حملوا الجثمان بحذر شديد إلى الشاطئ، وخاضوا مياه البحر المتلاطمة التي ينعكس عليها ضوء الشمس المبهر. قلت لهم: «تقدموا أكثر! احملوه بعيدًا!»

خاضوا المياه إلى أن وصلت إلى آباطهم، ثم توقفوا ينظرون إليّ، فأمرتهم: «اتركوه». اختفى جسد مونتجومري وسط الماء الذي تناثرت قطراته من حوله. وشعرت بانقباض في صدري. قلت لهم بصوت متهدج: «حسنًا!» عادوا مسرعين وخائفين إلى حافة المياه مخلفين وراءهم آثارًا سوداء في المياه الفضية. توقفوا عند تلك الحافة، ثم استداروا وحدقوا في البحر كما لو كانوا يتوقعون قيام مونتجومري من بين أمواجه وثأره منهم.

قلت لهم مشيرًا إلى الأجساد الأخرى: «والآن هؤلاء.»

حرصوا على ألا يقتربوا من المكان الذي ألقوا فيه بجثة مونتجومري في الماء، فحملوا أجساد البشر الحيوانات الأربعة على طول الشاطئ مسافة نحو مائة متر قبل أن يخوضوا المياه ويتخلصوا منها بعيدًا.

وبينما كنت أشاهدهم وهم يتخلصون من جثة ميلينج المشوهة، سمعت وقع خطوات خفيفة خلفي، وعندما استدرت سريعًا رأيت الرجل الضبع الخنزير على بعد نحو اثني عشر مترًا. كان مطأطئ الرأس، وعيناه اللامعتان مثبتتين عليّ، ويداه القصيرتان مطبقتين بإحكام إلى جانبه. توقف في هذا الوضع المنحني عندما استدرت، محولًا نظره عني قليلًا.

وقفنا لحظة وكلٌّ منا ينظر في عين الآخر. أسقطت السوط، وحاولت سريعًا الإمساك بالمسدس الموجود في جيبي، فكنت أنوي قتل ذلك المتوحش — أكثر الكائنات المتبقية على الجزيرة آنذاك رعبًا — عندما تسنح لي أول فرصة لذلك. قد يبدو الأمر نوعًا من الغدر، لكن هذا ما عزمت على فعله. كنت أخافه أكثر من أي اثنين مجتمعين من البشر الحيوانات. وكنت أعلم أن في استمراره على قيد الحياة تهديدًا لحياتي.

استغرقت نحو عشر ثوانٍ محاولًا استجماع شجاعتي، ثم صحت: «ألق التحية! انحنِ!»

لمعت أسنانه وهو يزمجر في وجهي: «من تكون أنت لـ ...»

أخرجت مسدسي مع شيء من التردد، وصوبته تجاهه وأطلقت النار سريعًا. سمعته يعوي، ورأيته يجري من جانب لآخر، ويستدير. فعلمت أنني لم أصبه، ضغطت على الزناد مرة أخرى بإبهامي لأطلق طلقة أخرى. لكنه كان قد جرى للأمام بالفعل، واثبًا من جانب لآخر، ولم أجرؤ أن أخطئه مرة أخرى. كان ينظر خلفه نحوي بين الحين والآخر. كان يتمايل على الشاطئ، واختفى تحت أكوام الدخان الكثيف الذي كان لا يزال يتصاعد من المنطقة المسيجة التي أمسكت بها النيران. وقفت محدقًا فيه من الخلف بعض الوقت، ثم استدرت إلى البشر الحيوانات الثلاثة المطيعين ثانية، وأشرت لهم بإلقاء الجثة التي كانوا لا يزالون يحملونها. عدت بعد ذلك إلى المكان بجوار النار حيث كانت الجثث ملقاة، وأخذت أركل الرمال إلى أن امتصت كل بقع الدم بنية اللون، واختفت.

صرَفتُ تابعِيَّ الثلاثة بإشارة من يدي، وقطعت الشاطئ وصولًا إلى الأجمة. حملت مسدسي في يدي، ورفعت السوط والفئوس معلقة في حمالة ذراعي. كنت قلقًا من البقاء بمفردي ومن التفكير بمعزل عن الموقف الذي كنت فيه.

الأمر المروع الذي لم أدركه إلا آنذاك هو أن هذه الجزيرة لم يعد بها مكان آمن يمكن أن أكون فيه وحدي، أو أستريح أو أنام فيه. كنت قد استعدت قوتي بشكل مذهل منذ هبوطي على الجزيرة، لكن كنت لا أزال أنزع إلى العصبية، وأنهار تحت أي ضغط شديد. شعرت أنه يجب علي الانتقال إلى الجانب الآخر من الجزيرة، والإقامة مع البشر الحيوانات هناك، فأؤمن نفسي باكتساب ثقتهم، لكن لم تواتِني الشجاعة. عدت إلى الشاطئ، وعندما استدرت ناحية الشرق متجاوزًا المنطقة المسيجة المشتعلة، وصلت إلى بقعة ضحلة كانت الرمال المرجانية تجري فيها ناحية الصخور القريبة من الماء. هنا يمكنني الجلوس والتفكير، مديرًا ظهري للبحر، ومواجهًا أي مفاجأة يمكن أن تباغتني. جلست في ذلك المكان، مُسندًا ذقني على ركبتيّ، والشمس تحرق بأشعتها رأسي التي أخذت المخاوف تتزايد فيه. كنت أخطط لنفسي كيف سأحيا إلى أن ينقذني أحد (هذا إن حدث ذلك على الإطلاق). حاولت استعراض الموقف بأكمله بأكبر قدر ممكن من الهدوء، لكن كان من المحال إقصاء مشاعري عند الحكم على الأمر.

أخذت أفكر في السبب وراء اليأس الذي اتسم به مونتجومري. فكان يقول: «سيتغيرون ... سيتغيرون بالتأكيد.» ومورو أيضًا؛ ما الذي كان يقوله مورو؟ نعم ... كان يقول إن الحيوان العنيد بداخلهم ينمو من جديد يومًا بعد يوم. انتقلت بعد ذلك

للتفكير في الرجل الضبع الخنزير. كنت موقنًا أنني إذا لم أقتله فسوف ألقى ذلك المصير على يده. لسوء الحظ أن الناطق بالقانون قد مات؛ فهم يعلمون الآن أننا — حاملي الأسواط — يمكن قتلنا، كما يُقتلون هم أنفسهم.

أليس من الممكن أن يكونوا يحدقون فيّ بالفعل الآن من بين أشجار السرخس وسعف النخيل الكثيف الأخضر؛ يراقبونني إلى أن أصبح على مقربة منهم؟ ألا يضعون خططًا للإيقاع بي؟ ما الذي كان الرجل الضبع الخنزير يقوله لهم؟ قادني خيالي إلى مستنقع من المخاوف التي لا أساس لها.

انقطع حبل أفكاري عند سماعي أصوات بعض الطيور البحرية التي كانت تتسارع نحو جسم أسود قذفته الأمواج على الشاطئ بالقرب من المنطقة المسيجة. علمت ماهية ذلك الجسم، لكن لم يكن لدي ما يكفي من الشجاعة لأعود وأُبعد تلك الطيور عنه. بدأت في السير على الشاطئ في الاتجاه المعاكس، عاقدًا العزم على تجاوز الجانب الشرقي للجزيرة، ومن ثم الاقتراب من الوادي الذي توجد به الأكواخ دون عبور الكمائن المحتمل وجودها بين الأجمة.

بعد السير مسافة نحو نصف ميل على الشاطئ، أبصرت واحدًا من البشر الحيوانات الثلاثة التابعين لي وهو يخرج من بين الأجمة الأرضية متوجهًا نحوي. كنت آنذاك منفعلًا للغاية من أثر التصورات التي تراءت لي؛ الأمر الذي دفعني لإخراج مسدسي على الفور. حتى الإيماءات الاسترضائية التي أبداها ذلك الكائن فشلت في التهدئة من روعي.

تردد أثناء تقدمه نحوي، وصحت في وجهه: «ابتعد!» كان هناك شيء شديد الشبه بالكلب في وضع التذلل الذي اتخذه ذلك الكائن. تراجع قليلًا للوراء على نحو مشابه كثيرًا للكلب عند إبعاده عن المرء، ثم توقف ناظرًا إلي ومتوسلًا بعينيه البنيتين الشبيهتين بعيني الكلب، فقلت له: «ابتعد … لا تقترب مني.»

قال: «ألا يمكنني الاقتراب منك؟»

أجبته بإصرار: «كلا، فلتبتعد عن هنا.» وضربت بسوطي، ثم وضعته في فمي، وانحنيت لألتقط صخرة. وبذلك التهديد تمكنت من إبعاد ذلك المخلوق عني.

وهكذا، وصلت وحيدًا إلى الوادي الذي يسكنه البشر الحيوانات. اختبأت بين الأعشاب وقصب الخيزران الذي كان يفصل ذلك الأخدود عن البحر، وراقبت مَن ظهر مِن أولئك البشر الحيوانات، محاولًا أن أحكم من إيماءاتهم ومظهرهم كيف أثرت عليهم وفاة مورو ومونتجومري، وانهيار دار الألم. أدركت حينذاك سخف ما كنت عليه من جُبن.

لو أنني حافظت على شجاعتي ولم أسمح لها بالتراجع في فكري المنعزل، لتمكنت من اعتلاء مركز مورو السلطوي الشاغر آنذاك، وحكمت البشر الحيوانات. يمكنني القول إني أضعت فرصتي، واقتصرت على أن أكون مجرد قائد بين أتباعي.

وبحلول الظهيرة جاء بعضهم، وجثموا يستدفئون بالرمال الساخنة. غلب شعوري المُلِح بالجوع والعطش خوفي، فخرجت من بين الأجمة والمسدس في يدي، وسرت نحو تلك المخلوقات الجاثمة على الأرض. أدارت إحداهم — وكانت امرأة ذئبًا — رأسها نحوي وحدقت فيّ، وتبعها الآخرون في ذلك. لم يحاول أيٌّ منهم النهوض وإلقاء التحية عليّ. كنت قد بلغت من الإعياء والإنهاك ما حال دون أن أصمم على أن ألقى احترامًا من هذا العدد الكبير منهم، فلم ألق بالًا للأمر.

قلت — على نحو أقرب إلى الاعتذار — وأنا أقترب منهم: «أريد طعامًا.»

قال الرجل الثور الخنزير نعِسًا، وهو يدير نظره عني: «يوجد طعام في الأكواخ.»

تجاوزتهم، وتوجهت وسط ظلمة ذلك الوادي شبه المهجور وروائحه. وفي أحد الأكواخ الشاغرة تناولت بعض الفاكهة باستمتاع، ثم بعد أن وضعت بعض الأغصان والعصي المرقطة شبه المتحللة عند المدخل، وجعلت وجهي مواجهًا له، ويدي على مسدسي، حلَّ على جسدي إرهاق الساعات الثلاثين الماضية، فسمحت لنفسي بأن أغفو، وأنا موقن بأن المتراس الواهي الذي أقمته سيتسبب في ضجة كفيلة بالحيلولة دون مباغتتي عند إزالته.

الفصل الحادي والعشرون

ارتداد البشر الحيوانات

وهكذا أصبحت واحدًا من جماعة البشر الحيوانات على جزيرة الدكتور مورو. وعندما استيقظت كان الظلام قد حلَّ من حولي. كانت ذراعي تؤلمني في الضمادات المحيطة بها. جلست متسائلًا في البداية عن المكان الذي أوجد فيه. سمعت بعد ذلك أصواتًا جشة تتحدث بالخارج، ثم لاحظت أن المتراس الذي صنعته قد أُزيل، وأن مدخل الكوخ صار فارغًا. كان المسدس لا يزال في يدي.

سمعت صوت أنفاس، ورأيت شيئًا رابضًا بالقرب مني. حبست أنفاسي، محاولًا تبين ماهيته. بدأ يتحرك ببطء دون توقف، ثم مر شيء أملس ودافئ ورطب على يدي.

انقبضت جميع عضلات جسمي، فسحبت يدي سريعًا. كدت أطلق صيحة ارتياع، لكنها اختنقت في حلقي. أدركت حينها فقط ما قد حدث مما جعلني أُبقي أصابعي على المسدس.

قلت هامسًا بصوت أجش، ولا يزال المسدس موجهًا في يدي بثبات: «من هناك؟»

– «أنا يا سيدي.»

– «من أنت؟»

– «إنهم يقولون إنه ما من سيد الآن، لكنني أعلم ... نعم أعلم. لقد حملت الجثث إلى البحر ... تلك الجثث التي ذبحتها، أيها السائر في البحر. أنا عبدك يا سيدي.»

سألته: «هل أنت من التقيته على الشاطئ؟»

– «بعينه يا سيدي.»

كان من الجلي أن ذلك المخلوق مخلص بما فيه الكفاية، فكان بإمكانه الانقضاض عليّ أثناء نومي. قلت له، وأنا أمد يدي ليقبلها قبلة أخرى وهو يلعقها: «حسنًا». بدأت أدرك ما كان يعنيه وجوده، وأخذتني الشجاعة فسألت: «أين الباقون؟»

قال الرجل الكلب: «إنهم مجانين وحمقى. يتبادلون الآن أطراف الحديث هناك، ويقولون: «السيد قد مات، وحامل السوط قد مات أيضًا، والسائر في البحر صار حاله من حالنا. لم يعد لدينا سيد، أو أسواط، أو دار للألم. هناك نهاية. نحن نحب القانون، وسنحافظ عليه، لكنه ما من ألم أو أسياد أو أسواط بعد الآن.» هذا ما يقولونه. لكنني أعلم يا سيدي، أنا أعلم.»

تلمست طريقي في الظلام، وربتُّ على رأس الرجل الكلب، وقلت له ثانيةً: «حسنًا.»

رد الرجل الكلب: «ستذبحهم جميعًا الآن، أليس كذلك؟»

أجبته: «الآن؟ كلا، سأذبحهم جميعًا ... لكن بعد عدد معين من الأيام وانقضاء بعض الأحداث. وبعد ذلك سيُذبح الجميع فيما عدا من أعفو عنه ... جميعهم سيُذبحون.»

قال الرجل الكلب وقد شاب صوته بعض الرضا: «من يرغب السيد في قتله فسيقتله.»

قلت له: «وإذا زادت خطاياهم فسأدعهم يعيشون في جهلهم إلى أن يحين موعد حسابهم. لندعهم غافلين عن كوني السيد.»

قال الرجل الكلب بلباقته الحاضرة النابعة من طبيعته الخانعة: «مشيئة السيد جيدة.»

قلت: «لكن إذا أذنب أحدهم فسوف أقتله أينما التقيته. وعندما أقول لك: «هذا هو»، فعليك بالانقضاض عليه. والآن، سأذهب إلى الرجال والنساء المجتمعين معًا.»

للحظة، أظلم مدخل الكوخ بخروج الرجل الكلب، ثم اتبعته ووقفت في البقعة نفسها التي كنت أقف فيها عندما سمعت مورو وكلب الصيد أثناء ملاحقتهما لي. لكن الآن، فقد كان الوقت ليلًا، وخيم الظلام على الوادي بجوه الخانق أمامي. وخلفه، بدلًا من المنحدر الأخضر المشمس، رأيت نارًا حمراء أخذت الكائنات المحدبة المشوهة تتحرك أمامها جيئة وذهابًا. وفيما بعد ذلك أشجار كثيفة أشبه بكومة سوداء يحفها من فوق شريط أسود من الأغصان العلوية. كان القمر يبزغ لتوه من حافة الوادي، والبخار المتدفق باستمرار من فوهات البراكين الموجودة على الجزيرة يتصاعد أمامه كما لو كان قضيبًا يخترقه.

قلت مستجمعًا شجاعتي: «سِر بجانبي»، وسرنا جنبًا إلى جنب في الطريق الضيق، دون أن نلقي بالًا للأشياء المبهمة التي كانت تحدق فينا من الأكواخ.

لم يحاول أحد من الموجودين حول النار إلقاء التحية علينا، وتجاهلنا معظمهم في تفاخر. نظرت حولي بحثًا عن الرجل الضبع الخنزير، لكنه لم يكن موجودًا. كان حول النار نحو عشرين من البشر الحيوانات جاثمين يحدقون في النار أو يتحدثون معًا.

سمعت صوت الرجل القرد عن يميني يقول: «لقد مات ... مات ... السيد مات. ودار الألم، لم تعد هناك دار للألم.»

قلت بصوت مرتفع: «إنه لم يمت، ولا يزال يراقبنا حتى الآن.»

روعهم ذلك فجأة، وصارت عيونهم تحدق فيّ.

قلت: «اختفت دار الألم، لكنها ستعود. والسيد لم يعد بإمكانكم رؤيته، لكنه يسمعنا في هذه اللحظة من فوقنا.»

قال الرجل الكلب: «صحيح ... صحيح!»

أصابهم تأكيدي بالذهول. قد يكون الحيوان ضاريًا وماكرًا، لكن الكذب من شيم البشر بحق. قال أحد البشر الحيوانات: «ينطق الرجل ذو الذراع المضمدة بكلام غريب.»

قلت: «لقد أخبرتكم بحقيقة الأمر. سيعود السيد، وستعود دار الألم من جديد. والويل لمن سيخرق القانون!»

نظر كلٌّ منهم إلى الآخر في حيرة. وبشيء من اصطناع اللامبالاة بدأت في ضرب الأرض أمامي بكسل باستخدام بلطتي. ولاحظت أنهم ينظرون للشقوق العميقة التي أحدثتها في طبقة العشب.

تشكك الساتير بعد ذلك فيما كنت أقوله؛ فأجبته، ثم اعترض واحد من الكائنات المرقطة، فبدأت مناقشة حادة حول النار. وبمرور كل لحظة، كنت أزداد اقتناعًا بالأمان الحالي الذي أتمتع به. فصرت أتحدث دون أن أشعر بالانقطاع في أنفاسي الذي كان يزعجني في السابق نظرًا لشدة انفعالي. وفي غضون حوالي ساعة، كنت قد أقنعت بالفعل العديد من البشر الحيوانات بصدق ما كنت أؤكده لهم، وأقنعت الآخرين الذين كانت تراودهم الشكوك. ظللت متيقظًا في بحثي عن عدوي الرجل الضبع الخنزير، لكنه لم يظهر مطلقًا. وكنت أشعر بين الحين والآخر بحركة مريبة تفزعني، لكن ثقتي أخذت تزداد سريعًا. ومع بدء اختفاء القمر أخذ المستمعون يتثاءبون واحدًا تلو الآخر (لتظهر من أفواههم أغرب أسنان يمكن رؤيتها في ضوء النار التي بدأت تخمد)، وانسحبوا بعد ذلك باتجاه الوكر الموجود في الوادي. وذهبت معهم لخوفي من السكون والظلام وعلمي بأن الوجود مع عدد كبير منهم أكثر أمانًا من البقاء مع أحدهم فحسب.

على هذا النحو بدأ الجزء الأكبر من إقامتي على جزيرة الدكتور مورو. لكن منذ تلك الليلة حتى النهاية، لم يحدث ما يستحق التحدث عنه سوى أمر واحد، ذلك باستثناء سلسلة من التفاصيل الصغيرة العديدة المزعجة، والاضطراب الناتج عن القلق الدائم. لذا فإنني أفضل ألا أسرد ما حدث في تلك الفترة الزمنية خلا واقعة رئيسية واحدة فقط في الشهور العشرة التي قضيتها مقرَّبًا من تلك الحيوانات الشبيهة بالبشر. هناك العديد من الأمور العالقة في ذاكرتي يمكن أن أكتبها؛ أمور يمكن أن أضحي بأغلى ما عندي لأنساها. لكنها لا تفيد في رواية قصتي. وبالنظر إلى الماضي من الغريب تذكر كيف اعتدت أساليب هؤلاء الوحوش، واكتسبت ثقتي مرة أخرى بهذه السرعة. كنت أدخل في مشاجرات بالطبع، وعلى جسمي في الوقت نفسه بعض آثار أسنان، لكن سرعان ما صاروا يحترمون حيلتي في رمي الحجارة والتأثير القوي لبلطتي. وقد كان ولاء الرجل الكلب التابع لي ذا نفع كبير لي. توصلت إلى أن مقياسهم البسيط للمقام الرفيع يعتمد أساسًا على القدرة على إحداث جروح بليغة. ويمكنني القول بالتأكيد — دون تكبر كما آمل — إنني قد احتللت مكانة رفيعة بينهم. وقد حمل واحد أو أكثر ممن ألحقت بهم جروحًا بالغة ضغينة نحوي، لكنها كانت لا تظهر إلا من وراء ظهري، وعلى بُعد آمن من أسلحتي، على هيئة تقطيب للوجه.

تجنب الرجل الضبع الخنزير مواجهتي، وكنت دائمًا متأهبًا له. وكان الرجل الكلب الملازم لي يكرهه ويهابه كثيرًا. ولدي اقتناع تام أن ذلك كان سببًا رئيسيًّا لتعلق ذلك الرجل الكلب بي. وسرعان ما اتضح لي أن ذلك الوحش قد تذوق الدماء، واتبع نهج الرجل الفهد، فأقام لنفسه مخبأ في مكان ما بالغابة، وانزوى عن الآخرين. حاولت في إحدى المرات حث البشر الحيوانات على اصطياده، لكنني افتقرت للسلطة التي تجعلهم يتعاونون لتحقيق غاية واحدة. حاولت مرارًا وتكرارًا الاقتراب من عرينه، والانقضاض عليه على حين غرة، لكنه كان دائم الحذر مني، فكان يراني دومًا أو يروعني ثم يهرب. وقد جعل كذلك جميع الطرق بالغابة خطيرة لي ولحلفائي بما كان يقيمه من كمائن خفية. ونادرًا ما كان الرجل الكلب يجرؤ على الابتعاد عني.

طغت الطبيعة البشرية إلى حد بعيد على البشر الحيوانات خلال الشهر الأول أو نحوه، وذلك بالمقارنة بحالتهم السابقة. وإلى جانب صديقي الشبيه بالكلب، لقيت تسامحًا وديًّا من واحد أو أكثر من أولئك البشر الحيوانات؛ فأظهر الكائن الوردي الصغير الشبيه بالكسلان عاطفة غريبة تجاهي، وأخذ يتبعني. أما الرجل القرد، فكان

مصدر إزعاج لي بافتراضه أنه ندٌّ لي نظرًا لما يتمتع به من أصابع خمسة، وكان دائمًا يثرثر بكلام غير مفهوم معي؛ لغو بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لكن ثمة شيئًا بشأنه كان يسليني قليلًا؛ فكان يمارس حيلة رائعة لصياغة كلمات جديدة. كانت لديه فكرة، على ما أعتقد، أن الثرثرة بالأسماء التي لا معنى لها هي الاستخدام المناسب للخطاب. وكان يطلق عليها «الأمور العِظام» ليميزها عن «الأمور البسيطة» المتمثلة في اهتمامات الحياة اليومية العقلانية. وكان إذا ما علقت تعليقًا لا يفهمه يمتدحه كثيرًا ويطلب مني أن أردده، فيحفظه عن ظهر قلب، وينطلق مكررًا إياه، مُخطِئًا في كلمة أو اثنتين، أمام الرجال الحيوانات الأكثر اعتدالًا. وكان لا يلقي بالًا لما هو واضح ومفهوم. وقد اخترعت بعض «الأمور العِظام» المثيرة للغاية لاستخدامه الخاص. وأعتقد الآن أنه أكثر المخلوقات التي قابلتها سذاجة؛ فقد طور بأكثر الطرق براعة السذاجة المميزة للإنسان دون أن يفقد مثقال ذرة واحدة من حماقة القرود الطبيعية.

كان ذلك خلال الأسابيع الأولى من إقامتي وحيدًا بين تلك الوحوش. وفي تلك الفترة كانوا يحترمون العُرف الذي ينص عليه القانون، وينهجون سلوكًا لائقًا بوجه عام. عثرت في إحدى المرات على أرنب آخر ممزق إربًا، وكنت متيقنًا أن الرجل الضبع الخنزير هو الفاعل. لكن فيما عدا ذلك، كان كل شيء على ما يرام. ولم أدرك إلا في شهر مايو/أيار للمرة الأولى وبوضوح التغير المتزايد في حديثهم ومشيتهم، والخشونة التي تتزايد حدتها في نطقهم، ونفورهم المتزايد من الكلام؛ فصار الرجل القرد أعلى صوتًا في ثرثرته التي تراجعت إمكانية فهمها وازداد تشابهها بأصوات القرود شيئًا فشيئًا. وبدأ بعض الآخرين في فقدان قدرتهم على الحديث، وإن ظلوا يفهمون ما كنت أقوله لهم أثناء تلك الفترة. هل يمكنك تصور الأمر: لغة واضحة ودقيقة تضعف وتهزل لتفقد شكلها ومضمونها، ولا تصير إلا مجموعات من الأصوات مرة أخرى؟ هذا فضلًا عن ازدياد صعوبة سيرهم منتصبي القامة. وبالرغم من خجلهم من أنفسهم، كنت بين الحين والآخر أرى واحدًا أو أكثر منهم يجري على أصابع قدميه ويديه، ويكون غير قادر على استعادة وضع الانتصاب. وصاروا يحملون الأشياء على نحو أكثر خُرقًا، ويمصون ما يشربونه، ويقرضون ما يأكلونه، وازداد سلوكهم ابتذالًا. وأدركت بشكل قاطع أكثر من أي وقت مضى ما أخبرني به مورو بشأن معاودة الطبيعة الحيوانية بداخلهم في الظهور ثانية. لقد كانوا يرتدون سريعًا للغاية إلى تلك الطبيعة.

بدأ بعض منهم، وعلى رأسهم الإناث — وهذا ما لاحظته بشيء من الدهشة — في إهمال الوصية المتعلقة باللياقة، وكانوا يفعلون ذلك عن عمد في أغلب الأحيان. بل

وحاول آخرون أيضًا انتهاك حرمة القانون الذي ينص على الزواج الأحادي. وصار من الجلي أن تعاليم القانون قد بدأت تفقد قوتها. لا يمكنني متابعة الحديث عن هذا الموضوع الكريه. وقد تراجع الرجل الكلب كذلك إلى طبيعته ككلب ثانية؛ فصار يزداد غباءً وتشابهًا بذوات الأربع يومًا بعد يوم، هذا فضلًا عن تزايد كثافة الشعر الذي يغطي جسمه. وكدت لا ألحظ تحوله من رفيق يسير على يميني إلى كلب يترنح بجانبي. ومع تزايد الإهمال واختلال النظام بمرور الأيام صار الممر الذي يحتوي على أماكن إقامة البشر الحيوانات — الذي لم يتسم في أي وقت مضى بالجمال — كريهًا للغاية، الأمر الذي دفعني إلى مغادرته والانتقال إلى الجانب الآخر من الجزيرة. فصنعت لنفسي كوخًا من الأغصان وسط البقايا السوداء لمنطقة مورو المسيجة. واكتشفت أن بعض ذكريات الألم قد جعلت ذلك المكان الأكثر أمانًا لي من البشر الحيوانات.

من المحال ذكر كل خطوة من خطوات تراجع أولئك الوحوش إلى طبيعتهم الأولى بالتفصيل، وكيف قل تشابههم بالإنسان يومًا بعد يوم، وتركهم للضمادات والأربطة إلى أن تخلوا في النهاية عن كل قطعة ملابس على أجسامهم، وكيف بدأ الشعر ينتشر على أطرافهم العارية، وتراجعت جباههم وبرزت وجوههم، وكيف صار تذكر الألفة شبه الآدمية التي سمحت لنفسي بها مع بعضهم في أول شهر من إقامتي وحيدًا بينهم أمرًا مرعبًا.

كان التغير بطيئًا وحتميًّا؛ فلم يكن صادمًا سواء لي أو لهم. ولم أزل أتجول بينهم في أمان، وذلك لأنه لم تحدث صدمة مفاجئة في منزلق ارتدادهم للطبيعة الأولى بحيث توقظ داخلهم شحنة زائدة من الطبيعة الحيوانية المتفجرة التي أخذت تحل محل الطبيعة البشرية يومًا بعد يوم. لكنني بدأت أخشى من اقتراب حدوث تلك الهزة الآن بلا شك. لحق بي الكلب إلى المنطقة المسيجة، وتمكنت بفضل يقظته من النوم مطمئنًا في بعض الأحيان. وقد صار الكائن الوردي الصغير الشبيه بالكسلان خجولًا، وتركني ليعود إلى حياته الطبيعية ثانيةً بين أغصان الأشجار، فكنا نعيش حالة من التوازن التي تبقى في أقفاص الحيوانات التي يعرضها مروضوها إن تركها هؤلاء المروضون على حالها إلى الأبد.

لم ترتد بالطبع تلك المخلوقات إلى الحيوانات التي يراها القارئ في حدائق الحيوان، أي إلى دببة وذئاب ونمور وثيران وخنازير وقرود طبيعية. لكن ظل هناك شيء ما غريب في كل منهم؛ لقد مزج مورو في كلٍّ منهم بين حيوانين؛ فغلب على أحدهم طبيعة الدببة،

وعلى الآخر طبيعة القطط أو البقر، لكن اتسم كلٌّ منهم في الوقت نفسه بسمات كائن آخر. وطغت سمات حيوانية عامة على الطباع المختلفة. لكن ظلت بقايا الطبيعة البشرية المتراجعة تفاجئني بين الحين والآخر متمثلة في ارتداد سريع للقدرة على التحدث، أو براعة غير متوقعة في استخدام القوائم الأمامية، أو محاولة بائسة للسير بانتصاب.

ومما لا شك فيه أنني أيضًا قد تعرضت لتغيرات غريبة، فصارت ملابسي تتدلى على جسدي كأسمال بالية صفراء اللون تتبدى من بين شقوقها بشرتي التي سفعتها الشمس، كما صار شعري طويلًا وأشعث. ولا يزال يخبرني الناس حتى الآن أن عيني بهما بريق غريب وتنبه سريع للحركة.

في البداية كنت أقضي ساعات النهار على الشاطئ الجنوبي منتظرًا ظهور أي سفينة، بل آملًا وداعيًا أن تظهر. كنت أتوقع عودة «إبيكاكوانا» بانقضاء العام، لكنها لم تأت. وقد رأيت مراكب شراعية خمس مرات، ودخانًا ثلاث مرات، لكن ما من شيء وصل إلى الجزيرة في أيٍّ من تلك المرات. كنت مستعدًّا دائمًا بإشعال النار، لكن بالتأكيد كانت تلك النار تعزى إلى الطبيعة البركانية التي اشتهرت بها الجزيرة.

لم أفكر في صنع طوف إلا في شهر سبتمبر/أيلول أو أكتوبر/تشرين الأول. بحلول ذلك الوقت كانت ذراعي قد شُفيت، وصار بإمكاني استخدام كلتا يدي. كان شعوري بالعجز في البداية مروعًا، فلم أقم من قبل بأي أعمال نجارة أو شيء من هذا القبيل. قضيت أيامًا متتالية بين الأشجار في محاولات لقطع أخشابها وربطها. لم تكن لديّ أي حبال، ولم تقع يداي على أي شيء يمكن بواسطته أن أصنع حبالًا؛ فلم تبد أيٌّ من النباتات المتسلقة الكثيفة لدنة أو قوية بما فيه الكفاية لذلك الغرض، كما لم يسعفني أيٌّ مما تبقى لديّ من معرفة علمية في صنعها. قضيت أكثر من أسبوعين أنبش بين البقايا السوداء للمنطقة المسيجة وعلى الشاطئ حيث احترق القاربان، باحثًا عن مسامير أو أي قطع معدنية أخرى متناثرة يمكن أن تكون ذات جدوى. بين الحين والآخر كان واحد من البشر الحيوانات يراقبني ثم يتراجع سريعًا عندما أنادي عليه. تعرضت الجزيرة لفترة من العواصف الرعدية والأمطار الغزيرة مما أعاق عملي كثيرًا، لكنني في النهاية أتممت صنع الطوف.

كنت سعيدًا به، لكن افتقاري للحس العملي — الذي كان مصدر الأذى لي دائمًا — جعلني أصنعه بعيدًا عن البحر بنحو ميل أو أكثر، وقبل أن أتمكن من سحبه على الشاطئ، كان قد تفكك إلى قطع منفصلة. وربما أكون قد أُنقذت في الوقت نفسه من

إنزاله إلى الماء وهو بتلك الحالة. لكنني كنت تعسًا للغاية في ذلك الوقت بسبب فشلي حتى إنني كنت أمضي أيامًا أتسكع على الشاطئ محدقًا في الماء ومستغرقًا في التفكير في الموت.

لكنني لم أرغب في الموت. وقع حادث أنذرني على نحو جلي بحماقة أن أدع الأيام تمر وأنا على هذه الحال حيث كان كل يوم جديد مشحونًا بخطر متزايد من جانب الحيوانات المتوحشة. كنت مستلقيًا في إحدى المرات في ظل جدار المنطقة المسيجة محدقًا في البحر الممتد أمامي عندما روعني شيء بارد يلمس عقب قدمي. وعندما أنعمت النظر حولي رأيت المخلوق الوردي الصغير الشبيه بالكسلان ينظر في وجهي بعينين طارفتين نصف مفتوحتين. كان قد مر وقت طويل على فقدانه القدرة على الكلام والتحرك بنشاط، وصار شعره المسترسل يزداد كثافة بمرور الأيام، ومخالبه القصيرة البدينة صارت أكثر انحرافًا. أصدر صوت عويل عندما رأى أنه قد جذب انتباهي، وسار بعض خطوات ناحية الأجمة، ثم نظر إلي ثانيةً.

لم أعِ الأمر في البداية، لكنني سرعان ما أدركت أنه كان يريدني أن ألحق به، وهذا ما فعلته في النهاية، لكن ببطء نظرًا لحرارة الجو في ذلك اليوم. وعندما وصل إلى الأشجار تسلقها لأن حركته كانت أيسر بين النباتات المتسلقة العالقة من تلك الأشجار مقارنة بحركته على الأرض.

فجأة، وفي منطقة سبق وطؤها، رأيت مشهدًا مروعًا. كان الكلب التابع لي يرقد ميتًا على الأرض، وبالقرب من جثته يجثم الرجل الضبع الخنزير ممسكًا بمخالبه المشوهة اللحم المرتعش لضحيته، ناخرًا إياه ومزمجرًا في بهجة. وعندما اقتربت رفع الوحش عينيه المحملقتين بغضب لتلتقيا بعينيَّ، وارتعشت شفتاه لتظهر من تحتها أسنانه الملطخة بالدماء، وزمجر مهددًا إياي. لم يكن خائفًا أو خجلًا؛ اختفى آخر أثر للطبيعة البشرية لديه. تقدمت خطوة أخرى، ثم توقفت، وأخرجت مسدسي. وأخيرًا، صرنا وجهًا لوجه.

لم يُبد الحيوان أي أثر للتراجع، لكن أذنيه ارتدتا للخلف، وشعره انتصب بخشونة، وانحنى جسمه. صوبت بين عينيه وأطلقت النار. وأثناء قيامي بذلك وثب ذلك المخلوق فجأة ليقف أمامي، فسقطت على الأرض في الحال. تشبث بي بيده العاجزة، وضربني في وجهي. أدى ارتداده إلى اندفاعه بعيدًا عني. سقطت تحت الجزء الخلفي من جسمه، لكن لحسن الحظ كنت قد أصبته كما أردت، فمات أثناء وثبه. زحفت من تحت جسده القذر، ووقفت مرتعشًا ومحدقًا في ذلك الجسد المرتعش. لقد انتهى ذلك الخطر على الأقل. لكنني كنت أعلم أن ذلك ما هو إلا أول حلقة في سلسلة من الانتكاسات الحتمية.

حرقت الجثمانين على محرقة من الأغصان المقطوعة. وأدركت آنذاك أنني إذا لم أترك الجزيرة، فموتي هو بالتأكيد مسألة وقت فحسب. بحلول ذلك الوقت كانت الحيوانات — باستثناء واحد أو اثنين — قد تركت الوادي، وأقامت لأنفسها مخابئ وفقًا لأذواقها بين الأجمة الموجودة على الجزيرة. كان عدد قليل منهم يطوف الجزيرة خلسة أثناء النهار، لكن أغلبهم كان ينام فتبدو الجزيرة مهجورة لأي وافد جديد. أما الليل، فكان مرعبًا بصياحه وعوائه. كدت أذبحهم جميعًا بإقامة الأشراك أو مقاتلتهم بسكيني. وإذا كان لدي ما يكفي من الخراطيش، لما ترددت لحظة في البدء في قتلهم. لم يتجاوز عدد من تبقى من آكلي اللحوم الخطيرين عشرين؛ أكثرهم شجاعة كانوا قد ماتوا بالفعل بحلول ذلك الوقت. بعد موت كلبي المسكين، آخر صديق لي، اعتدت أنا أيضًا إلى حد ما على النوم أثناء النهار لكي أتمكن من حراسة نفسي أثناء الليل. أعدت بناء ما اتخذته وكرًا لي بين جدران المنطقة المسيجة مع جعل فتحته ضيقة بحيث إذا حاول أي كائن الدخول، فسيُحدِث بالضرورة قدرًا كبيرًا من الضوضاء. فقدت تلك الكائنات أيضًا ألفتها مع النار، وعادت لخوفها منها. عدت، بمزيد من الحماس تلك المرة، لقطع الأوتاد والأغصان وجمعها معًا لصنع طوف أهرب فيه.

واجهتني العديد من الصعوبات؛ فأنا رجل أخرق للغاية — وتعليمي انتهى قبل تطبيق نظام التعليم المهني — لكنني تمكنت في النهاية من توفير كل ما تطلبه صنع الطوف على نحو غير مباشر بطريقة أو بأخرى، واهتممت تلك المرة بمتانته. كانت العقبة الوحيدة أمامي التي لم أتمكن من التغلب عليها هي عدم وجود إناء أملؤه بالماء الذي سأحتاجه في حال خوضي تلك البحار المجهولة. فكرت في الفخار، لكن لم يكن بالجزيرة أي طين لصناعته. فأخذت أتسكع على الجزيرة مستغرقًا في التفكير محاولًا بكل ما أوتيت من قوة التوصل إلى حل بشأن هذه العقبة الأخيرة. وكنت أنفس في بعض الأحيان عن حالات غضب عنيف، فأكسِّر وأمزِّق أي شجرة تعيسة أمامي في نوبة غضبي المفرط. لكنني لم أتوصل إلى أي حل.

حلَّ بعد ذلك يوم رائع قضيته مبتهجًا؛ رأيت شراعًا ناحية الجنوب الغربي، وكان صغيرًا كأشرعة المراكب الشراعية الصغيرة، فأشعلت في التو كومة كبيرة من الأغصان المقطوعة، ووقفت بجانبها في ظل حرارتها وحرارة شمس منتصف النهار، مراقبًا الشراع. أمضيت اليوم بأكمله في مراقبة الشراع دون أن أتناول أو أشرب أي شيء، فأصبت بالدوار. وكانت الحيوانات تأتي وتحدق فيّ، وقد بدا عليها أنها تتساءل عما كنت أفعله، ثم تغادر.

كان القارب لا يزال بعيدًا بحلول الليل الذي أخفاه. أخذت أكد طوال الليل لأبقي لهب النار التي أوقدتها ساطعًا وعاليًا، وكانت عيون الحيوانات تلمع وسط الظلام في اندهاش. اقترب القارب أكثر ببزوغ الفجر، فرأيت أنه كان شراعًا متسخًا رباعي الأضلاع لقارب صغير. أجهدت المراقبة عيني، فكنت أمعن النظر فيما أمامي مع عدم تصديق لما أراه. كان هناك رجلان في القارب يجلسان على مستوى منخفض، أحدهم عند مقدمة القارب والآخر عند الدفة. لكن كان القارب غريبًا في إبحاره حيث لم تكن مقدمته تسير مع الرياح، بل تنحرف وتميل للأمام.

ومع سطوع ضوء النهار أخذت ألوح لهما بآخر خرقة متبقية من سترتي، لكنهما لم يلاحظاني، وظلا جالسين وجه أحدهما في وجه الآخر. ذهبت إلى أكثر البقاع انخفاضًا من اللسان المنخفض، وأخذت ألوح وأصيح. ولم يرد أحد عليّ، وظل القارب يسير في طريقه بلا هدف متجهًا ببطء شديد نحو الخليج. طار فجأة طائر أبيض كبير من القارب، ولم يحرك أيٌّ من الرجلين ساكنًا، أو ينتبه للطائر. أخذ الطائر يدور، ثم اندفع بخفة فوقهما فاردًا جناحيه القويين.

توقفت بعد ذلك عن الصياح، وجلست على اللسان مُسندًا ذقني على يديّ، وحدقت أمامي. مضى القارب ببطء ناحية الغرب، فكرت في أن أسبح وصولًا إليه، لكن شيئًا ما — خوفًا غامضًا — جعلني أحيد عن تلك الفكرة. وفي الظهيرة، دفعت الأمواج القارب على الشاطئ ليستقر على بعد مائة متر أو نحوها غرب بقايا المنطقة المسيجة.

كان الرجلان الموجودان في القارب ميتين، كانا كذلك منذ فترة طويلة حتى إن جسميهما تحلَّلا عندما أَمَلْت القارب على جانبه، وسحبتهما منه. كان أحدهما ذا شعر أحمر أشعث مثل رُبان المركب الشراعي «إبيكاكوانا»، وكانت هناك قبعة بيضاء متسخة ملقاة في قاع المركب. وأثناء وقوفي بجانب القارب انسل ثلاثة حيوانات خلسة من بين الأجمة، وأخذوا يتشممون المكان من حولي، فأصابتني إحدى نوبات الاشمئزاز التي اعتدت عليها. دفعت القارب الصغير على الشاطئ، وصعدت عليه. تقدم اثنان من الحيوانات، وكانا ذئبين، للأمام بمناخر مرتعشة وعيون لامعة. أما الثالث، فكان مخلوقًا بشعًا يجمع بين الدب والثور.

عندما رأيتهم يقتربون من هاتين الجثتين البائستين سمعتهم يدمدمون أحدهم للآخر، ورأيت وميض أسنانهم، فحل رعب شديد محل ما كنت أشعر به من اشمئزاز. أدرت ظهري لهم، وأنزلت الشراع رباعي الأضلاع، وأخذت أجدف بالقارب في البحر. ولم يسعني حمل نفسي على النظر خلفي.

لكنني توقفت بين الحيد البحري والجزيرة في تلك الليلة، وتوجهت في الصباح التالي إلى النهير، وملأت برميلًا صغيرًا بالماء. وبقدر ما استطعت من صبر جمعت مجموعة من الفواكه، وتربصت بأرنبين وقتلتهما بآخر ثلاثة خراطيش معي. وأثناء قيامي بذلك تركت القارب راسيًا في منطقة داخلية بارزة من الحيد البحري، خوفًا من الحيوانات المتوحشة.

الفصل الثاني والعشرون

رجل وحيد

في المساء بدأت المسير بالقارب في البحر تحملني رياح هادئة تهب من الجنوب الغربي؛ سرت ببطء وثبات، وصارت الجزيرة أصغر فأصغر، وخيط الدخان الضعيف يتضاءل شيئًا فشيئًا مع غروب الشمس الحارقة. تصاعدت أمواج البحر من حولي لتخفي تلك البقعة المنخفضة المظلمة من أمام عيني. وأخيرًا نظرت للفضاء الأزرق الفسيح الذي كان نور الشمس يحجبه عني، ورأيت مجموعات كثيرة من النجوم السابحة في السماء. خيم الهدوء على البحر والسماء؛ كنت وحدي في الليل والهدوء.

جرفتني المياه ثلاثة أيام لا أضع في فمي من الطعام والشراب سوى القليل، متأملًا فيما حدث لي دون رغبة قوية آنذاك في رؤية بني البشر مرة أخرى. كان يغطي جسدي قطعة ملابس بالية واحدة، وشعري أشعث أسود اللون. اعتقد من عثروا عليّ بلا شك أنني رجل مجنون. كان أمرًا غريبًا، لكنني لم أشعر بأي رغبة في العودة إلى الجنس البشري ثانيةً. الأمر الوحيد الذي كنت سعيدًا بشأنه هو أنني تخلصت من شرور الحيوانات المتوحشة. وفي اليوم الثالث التقطتني سفينة شراعية بصاريين كانت تشق طريقها من «أبيا» إلى سان فرانسيسكو. لم يصدق الرُّبان أو وكيله قصتي، وكان رأيهما أن الوحدة والخطر قد أصاباني بالجنون. ونظرًا لخوفي من أن يكون ذلك هو رأي الآخرين أيضًا، أحجمت عن رواية المغامرة التي خضتها، وادعيت أنني لا أتذكر أي شيء حدث في الفترة ما بين اختفاء السفينة «ليدي فين» والعثور علي؛ تلك الفترة التي تبلغ قرابة العام.

تحتم عليّ توخي أقصى درجات الحيطة لأقي نفسي من الشك في أنني مجنون. طاردتني ذكرياتي عن القانون، والبحارين الميتين، وكمائن الظلام، والجسد الملقى في مأوى الخيزران. وبالرغم من أن الأمر قد يبدو غير طبيعي، فعند عودتي إلى بني الإنسان ازداد على نحو غريب شعوري بالشك والخوف الذي كنت أعانيه أثناء إقامتي

على الجزيرة، بدلًا من الثقة والتعاطف اللذين توقعت أن أشعر بهما. لم يصدقني أحد، وكنت في عيون الناس غريب الأطوار كما كنت في عيون البشر الحيوانات. ربما أكون قد أصبت بشيء من البربرية الطبيعية التي كان يتسم بها رفاقي على الجزيرة.

يقول الناس إن الرعب مرض، ويمكنني أن أشهد أن خوفًا لا ينقطع قد طغى على تفكيري عدة أعوام الآن أشبه بخوف شبل ينقصه بعض الترويض. كان اضطرابي غريبًا؛ فلم أتمكن من إقناع نفسي بأن الرجال والنساء الذين كنت أراهم ويملكون سمات بشرية مقنعة ليسوا بشرًا حيوانات، أي حيوانات خضعت لتغييرات تجعلهم يظهرون بهيئة بشرية، وأنهم سيبدءون قريبًا في الارتداد وإظهار تلك السمات الحيوانية واحدة تلو الأخرى. لكنني أفضيت بسري إلى رجل ماهر للغاية، وكان يعرف مورو، وبدا عليه أنه يصدق قصتي قليلًا؛ كان متخصصًا في الأمراض العقلية، وقد ساعدني كثيرًا.

مع أنني لا أتوقع أنني قد أُشفى تمامًا من الرعب الذي شهدته على تلك الجزيرة، فذلك الرعب كان حاضرًا غالبًا في عقلي الباطن كسحابة بعيدة أو ذكرى وشك غير واضح. لكن في بعض الأحيان كانت تلك السحابة تتمدد إلى أن تحجب السماء بأكملها، فأنظر حولي إلى غيري من البشر، وأسير بينهم في خوف. أرى وجوهًا متحمسة وبراقة، وأخرى شاحبة أو خطرة، وغيرها مضطربة أو مخادعة؛ لا يتمتع أيٌّ منها بهدوء الروح القويمة. أشعر كما لو أن الحيوان كان يخرج من داخلهم، وأن الانحطاط الذي شهده سكان جزيرة مورو سيحدث ثانية على نطاق أوسع. أعلم أن ذلك وهم، وأن من يبدون أمامي رجالًا ونساء هم في الواقع رجال ونساء بالفعل، وسيظلون كذلك إلى الأبد، مخلوقات عاقلة تمامًا مليئة بالرغبات البشرية والبؤس البسيط، لا تتحكم فيها الغريزة أو قانون وهمي؛ مخلوقات مختلفة تمامًا عن البشر الحيوانات. لكنني كنت أنفر منهم ومن نظراتهم الفضولية وتساؤلاتهم ومساعدتهم، وتمنيت أن أبتعد عنهم وأعيش وحيدًا.

ولهذا السبب أعيش الآن بالقرب من المنخفض الفسيح الخالي حيث يمكنني الهروب عندما تغشى تلك الظلال روحي، ويكون المنخفض الخالي جميلًا للغاية تحت السماء وهبوب الرياح. عندما كنت أعيش في لندن كاد يكون الرعب غير محتمل. لم أستطع الهروب من الناس؛ كانت أصواتهم تدخل من النوافذ، ولم تُجدِ الأبواب المغلقة نفعًا في وقايتي منها. كنت أخرج إلى الشوارع لأتغلب على وهمي، فأجد النساء الهائمات في الشوارع يهمسن لي، والرجال الماكرون من ذوي الرغبات الملحة يرمقونني بنظرات تملؤها الغيرة، والعمال الشاحبون المتعبون يمرون من حولي وهم يسعلون وعيونهم

متعبة وخطواتهم سريعة متلهفة كالغزلان المجروحة التي يتقاطر الدم من أجسامها، وكبار السن محنيون وشاحبون يسيرون وهم يغمغمون لأنفسهم، وجميعهم غير مهتمين بالطابور غير المنظم من الأطفال المتهكمين الذين يسيرون خلفهم. كنت أعرج بعد ذلك على أي كنيسة صغيرة؛ وحتى هناك، صوَّر لي اضطرابي أن الواعظ يثرثر بكلام غير مفهوم عن «الأمور العِظام» كما كان الرجل القرد يفعل، أو أدخل أي مكتبة فتبدو لي الوجوه المنكبة على الكتب فيها كالكائنات المرابطة في انتظار الانقضاض على ضحيتها. أكثر شيء كان يثير غثياني هو وجوه البشر الخالية من أي تعبير في القطارات والحافلات؛ لم أعد أنظر إليهم كبشر من بني جنسي ولكن كجثث هامدة، فكنت لا أجرؤ على الارتحال إلا عندما أكون موقنًا من أنني سأكون بمفردي. أنا نفسي بدوت كائنًا غير عقلاني؛ حيوانًا يعاني اضطرابًا غريبًا في عقله جعله يهيم على وجهه وحيدًا كما لو كان خروفًا أصابه داء الجِدّ.

لكن بفضل الرَّب لم تعد هذه الحالة المزاجية تراودني الآن إلا نادرًا. ابتعدت عن اضطراب المدن والازدحام، قضيت أيامي محاطًا بالكتب المليئة بالحكمة التي هي بمنزلة نوافذ على الحياة التي نحياها أضاءتها أرواح رجال ملهمين. كنت لا أرى الكثير من الغرباء، ولا أملك سوى منزل صغير. أكرس أيامي للقراءة وإجراء التجارب الكيميائية، وأقضي الكثير من الليالي صافية السماء في دراسة علم الفلك. كان ثمة شعور بالأمان والسلام اللانهائي في الأجرام المتلألئة في السماء، وإن كنت لا أعرف السبب وراء هذا الشعور أو كيفية وجوده. أعتقد أن ما يسمو فوق الطبيعة الحيوانية بداخلنا لا يجد السلوى والأمل إلا في ظل القوانين الأبدية الشاملة للمادة، وليس في الهموم والذنوب والمشكلات اليومية التي يعيشها البشر. بداخلي أمل لولاه ما تمكنت من العيش؛ ولذا، بالأمل والعزلة تنتهي قصتي.

نبذة عن المؤلف

وُلد هربرت جورج ويلز في ضاحية بروملي بمقاطعة «كِنت» عام ١٨٦٦. وبعد العمل صبيًّا لدى تاجر أقمشة ومعلمًا أثناء دراسته، حصل على منحة دراسية في «كلية العلوم الطبيعية» في جنوب كنسينجتون عام ١٨٨٤، ليتعلم على يد توماس هنري هاكسلي، وحصل على شهادة في الأحياء مع مرتبة الشرف من الدرجة الأولى، واستمر في التدريس، لكن أجبرته إصابة لحقت به على التقاعد. عاش فقيرًا في لندن، وكان يعمل مدرسًا، إلى جانب تجاربه في الصحافة وكتابة القصص، ونشر كتبًا مدرسية في مجال الأحياء والفيسيولوجية المرضية، لكن رواية «آلة الزمن» (١٨٩٥) كانت نقطة انطلاقه في الأدب. وبدأ يؤلف أيضًا كتبًا وكتيبات سياسية واجتماعية إلى جانب مؤلفاته من القصص القصيرة والروايات العلمية. وفي مطلع القرن العشرين ازداد استغلال ويلز للأدب الروائي كمنبر لعرض الأفكار والرؤى عن الحكومة العالمية التي شغلت باله، لكنه تنبأ بأن الرواية نفسها ستتدهور لتحل محلها السير الذاتية النزيهة. بعد عام ١٩٢٠ تقريبًا تحول الاهتمام الشديد إلى خليفته، ألدوس هاكسلي. فعززت الحرب العالمية الثانية وفاجعة هيروشيما من الفكر المتشائم الذي صاحب ما كان لديه من رؤى وآمال حماسية. كاد ويلز يعمل حتى وفاته عام ١٩٤٦، وألف نحو أربعين كتابًا في العقدين الأخيرين من حياته.